

د. حسين فوزى النجار

الإعلام المعاصر

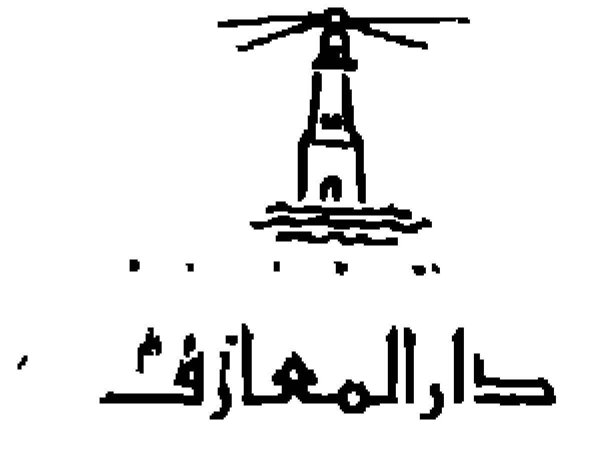
اقرأ

تصدر أول كل شهر
[٤٩٥] - يناير - ١٩٨٤

رئيس التحرير أنيس منصور

د. حسين فوزى النجار

الإعلام المعاصر



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإعلام قديمًا وحديثًا

الإعلام قديم قدم المجتمع الإنسانى ، فحيث ظهرت الجماعة المنظمة – وهى قوام الجماعة السياسية فى علم السياسة ، ظهرت معها وسائل الإعلام والحاجة إليه ، ولعل الحاجة إليه قد بدت مع قيام أول خلية اجتماعية وهى الأسرة ، فقد كان على رب الأسرة أن يحذر أولاده مما يعرض لهم من أخطار البيئة ، سواء كان وحشًا كاسرًا أو رعدًا قاصفًا أو عاصفة جائحة أو مطرًا منهمرًا أو سيلاً جارفًا . فلما قامت العشيرة كانت حاجتها إلى الأمن والحماية تحملها على انتهاج ما يحقق لها حاجتها من اتقاء غارة الوحوش على منتجع اختارته لإقامتها فترقب الطرق التى تنفذ منها الوحوش إليها ، ولعلها كانت ترصد تجمعاتها وتحركاتها بمن يقومون برصدها ليخطروا بها قبل أن تدهمهم بغارتها ، فلما نمت العشيرة وتحولت إلى قبيلة ، وكان هذا النمو وليد التماسك الاجتماعى بين عشائر متقاربة غدت حاجتها إلى حماية نفسها

من بنى جنسها تغلب حاجتها إلى حماية نفسها من كواسر الغابة أو وحوش الفلاة ، والتماسك الاجتماعى صنو الخوف ، بل إن الخوف من الغير هو الذى أدى إليه ، ومادام الخوف من الغير قائما فإنه يقود إلى عداوة هذا الغير ، والعداوة توجب الحذر ، والحذر يوجب الرقابة ، وللرقابة أدواتها بداية من قص الأثر إلى رؤيا البصر ، ويحكى عن الزباء أو زنوبيا ملكة تدمر أنها كانت من حدة البصر بحيث ترى الأعداء قبل اقترابهم من مدينتها بما يتيح لها الوقت الكافى لمواجهتهم .

فلما نما المجتمع واتسع حجمه ، نمت حاجته إلى التواصل والتآلف الذى يمزج أفراد الجماعة بعضهم ببعض ، بتنمية المشاعر المشتركة والمعتقدات الواحدة ، قد تفرضها السلطة كما يرى برتراند رسل ، أو تنشأ من نفسها لحاجة الجماعة إليها ، ونستطيع أن نتصور دور الإعلام سواء عن طريق السلطة أو عن طريق الجماعة نفسها عندما يتناثر أفرادها أخبارًا تعنيهم . أو يلتقون فى حفلاتهم العامة ، ويبدو دور الإعلام بارزًا فى توكيد قيم جديدة للجماعة الجديدة فى اتساعها وامتدادها عندما تضم أقواما جددًا إليها عن طريق الغزو أو التحالف ، فلما قامت الدولة ، كما قامت فى مصر القديمة ، كانت المشاعر المشتركة من وحى أساطير ارتدت مسوح الدين وغذاها الكهنة بقيم يلتف حولها الناس ، وكان الاحتفال بوفاء النيل والمناسبات الدينية وتتويج الملك أدوات إعلامية بالغة الأثر ، فأصبح للمعبد دوره الخطير فى توجيه الرأى العام ، ولما قامت الإمبراطوريات بحروب قورش وفتوح الإسكندر والغزو الرومانى للعالم كان نشر ثقافة الفاتح هدف الإعلام المباشر .

وترتبط وسائل الإعلام القديمة بحضارة زراعية سادت طوال العصور الخوالى منذ أدت الزراعة واستئناس الماشية فى مناطق الرعى إلى قيام المجتمعات البشرية فى القرى حيث استقر الناس للزراعة ، وفى المراعى حيث يطيب للناس رعى ماشيتهم ، وفى كلا الحالين عرف الناس وسائل الإعلام بسيطة فى بداوتها بساطة

المجتمعات التى نشأت فيها ، ولعل ساحر القرية وعراف القبيلة كانا أوّل إعلاميين فى التاريخ فهما أصحاب المعرفة والتنبؤ والتوجيه والإرشاد حيث كان الإعلام قاصرًا على الوفاء بحاجات المجتمع .

إلا أن التقدم الهائل فى وسائل الإعلام نتيجة الانقلاب الصناعى بعد اكتشاف القوى المحركة وقوانين الطاقة قلب موازين الإعلام رأسًا على عقب ، فتحرر من إطاره الضيق إلى رحاب الدنيا الواسعة حتى أصبحت هذه الدنيا على فسحتها - كما يقال - قرية صغيرة يلم الساكن فيها بما يدور حوله من أقصى أنحاء المعسورة إلى أدناها .

ومع تقدم المجتمع ونموه المعاصر تعددت مطالب الإعلام وإن لم تتغير وسائله ، فقد بقى الصوت إعلاما بخبرٍ يهمّ الجماعة نداءً بتحذير أو بلاغا من حاكم إلى الرعية كما هو لم يتغير حتى اخترعت الكتابة فأصبحت وسيلةً جديدة من وسائل الإعلام ظلت تنمو وتتطور حتى غدت على ماهى عليه الآن قوةً وازدهارًا تتضاءل دونها كل وسيلة حديثة من وسائل الإعلام المتطورة مادامت الكلمة تكتب قبل أن تذيعها وكالات الأنباء أو دور الإذاعة أو الكتب والصحف والدوريات فى الوقت الحاضر أو تنقش على الحجر كما كان شأن الفراعنة فى مصر أو تتضمنها رسالة ينقلها الرسل من مكان إلى آخر أو الحمام الزاجل حين اكتشف الناس قدرته على ذلك . كما كان من قبل .

وكان امتداد وسائل الإعلام على بداوتها وقصورها مرتبطا بامتداد الدولة ونموها فوجد أقصى مداه فى دول الحضارات القديمة مصر وبلاد الرافدين والهلال الخصيب والهند والصين ، ثم فى بلاد الإغريق وفى الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ثم الدولة الإسلامية التى ازدهت بها حضارة العصور الوسطى ، وكان الامتداد امتدادًا فى المدى دون الوسيلة ، حين أخذت الدول بوضع نظام للبريد

يكفل لرسائلها أن تصل إلى أقاليمها فى أمان ويسر على طرق معبّدة يسلكها عمال البريد كما تسلكها قوافل التجارة والجند الذين يؤمنون لها سلطانها ، وقد أتيح لروما أن تنشئ شبكة من الطرق الجيدة مكنتها من تأمين أملاكها والسيطرة عليها سيطرة تامة ما كان لها أن تتم لولا هذه الطرق الجيدة ، كما أتاح لها نشر ثقافتها فى عالمها الفسيح .

ثم كان اختراع الورق ما يسر للإعلام وسيلة جديدة للنشر والذيوع ، فأصبح الكتاب المنسوخ أروع وسيلة للإعلام وإن بقى قاصرًا على تدوين المعرفة ودون حاجة الناس إليه وإن حفلت به المكتبات العامة يؤمها من يحفى بالمعرفة فى دورها التى غدت مراكز للعلم والدراسة فى أثينا وروما والإسكندرية ومن بعد فى بغداد وطليطلة وقرطبة والقاهرة وبخارى وسمرقند والقيروان وفى كل مكان عمته حضارة الإسلام . حتى انتقلت الشعلة إلى أوربا حين أخذت تنفض عنها غبار العصور الوسطى ، ولكنها ثوت فى الكنائس والأديرة وكانت الهوة عميقة « بين العامة المتردية فى الجهل والأمية – كما يقول هرمان راندال – فى مؤلفه الفذ « تكوين العقل الحديث » وبين الخاصة المثقفة ، وكان العامة الأميون لا يعرفون من شئون العالم الخارجى إلا ما يتلقفونه من أفواه الحجاج والتجار العائدين ، فإذا أتيح لهم نوع من المعرفة الجديدة فعن طريق راهب القرية على جهله ، ولم تكن وسائل المعرفة السائدة فى يومنا هذا كالصحف والمجلات والسينما ، فضلا عن التعليم الذى يتيح للفلاح أو الصانع معرفة ما يجرى ومايدور من أحداث فضلا عن الأفكار موجودة كلها أو بعضها قبل ستمائة عام .. هذا إلى أن الكتب والوثائق كانت تدون باللاتينية التى لايعرفها الناس ، حتى الكتاب المقدس كان باللاتينية التى نقله إليها القديس جيروم ، وحين ترجمه « ويكليف » و « هس » إلى لغة العامة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اتهما بالمروق والخروج على طاعة الكنيسة .

وحين انتقلت المعرفة من الأديرة والكنائس إلى الجامعات . لم يكن لهذا الانتقال من أثر على الإعلام بقدر ما كان له من أثر على طبيعة المعرفة ، فلم تعد أسيرة التعاليم الثيولوجية وإن لم تكن منها بنجوة فظلت قوية الصلة بالطابع الأكليركى ، وإن أخذت تتحرر منها على التوالى ، بقدر ما أخذت تتحرر من النظرة الأرسطية إلى المعرفة ، فلم يكن غريبا أن يثور الأسقف الإنجليزى روجر بيكون (ت ١٢٩٠) بتعاليم أرسطو ، وأن يعلن أن « هذا كان طريق السلف ، وكان ذلك هو العرف السائد والنظرة الغالبة ، وعليها أن تزول » فينادى بالنظرة العلمية إلى الحقائق والأشياء ، « فالعلم كفيل بأن يحقق العجائب وأن يغير من وجه الأرض ، وسيأتى اليوم الذى يخترق فيه الإنسان أجواز الفضاء طائرا ، ولن يكون للعربات التى تجرها الخيول مكان ، وستجرى السفن فوق اليم بلا مجاديف وتقام الجسور بلا دعامات :

من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الصناعى :

ولم تكن ثورة الانقلاب الصناعى قد بدأت بعد ، وهى التى قدر لها أن تقلب أنماط الحياة رأسًا على عقب ، وقد سبقها ماينم عن تطلع العقل الجديد للمعرفة والإبداع فكان اختراع العدسات والبوصلة والأسطرلاب خطوة نحو عالم جديد يوشك أن يسفر عن نفسه فى قوة وعنف ، فقد كانت العدسات البداية فى صناعة الميكروسكوب والتلسكوب ، فكشفا للرائى الكثير من مغاليق الأرض والسماء ، كما قادت البوصلة الملاحين ورجال البحر نحو البحار العالية فكانت حركة الكشوف الجغرافية الباهرة ثم الاستعمار بكل عنفه ومساوئه ، وأخذ الناس يعرفون عن بعضهم البعض أكثر مما كانوا يعرفون من قبل على ألسنة البحارة وجوابى الآفاق ، ثم كان اختراع البارود فمضت الحضارة الأوربية الوليدة تغزو العالم مسلحة بالحديد

والنار ، ولم تعد أى بقعة فى العالم بمنأى عنها وغدت شعوب الأرض إما قاهر أو مقهور ، ولكن العالم أصبح عالما واحدًا .

وما كان هذا كله ليصنع حضارة تشيع وتمتد لولا اختراع الطباعة ، فهى وحدها التى صنعت العالم الجديد حين زودته بوسيلة الإعلام الأولى للفكر والتقارب الإنسانى ، وإن كنا نرى فى تلك الصورة الجديدة للعالم بعد الكشوف الجغرافية التى كشفت عن مجاهله نوعًا من التقارب والاتصال الإنسانى والعلاقات الناجمة عن هذه الصلات الإنسانية ما يحقق غاية الإعلام فى صورة من الصور تقف ندًّا للسياحة والتزاور بين الشعوب فى الوقت الحاضر تعدّها الدولة بعض وسائل إعلامها الدولى ، ثم كان اختراع الطباعة فى هذا العالم الجديد ما أضفى على الإعلام دفعة جديدة حين يسر تداول الكتاب وانتشاره بعد أن كان قاصرا على المكتبات فى الأديرة وفى الجامعات وعلى قلة من القادرين يقتنونه استكمالا للوجاهة أو حبًّا للمعرفة ، فلم تعد المعرفة ، قاصرة على السماع وعلى أخبار الجوابة والرحالين والتجار المتنقلين ، وأخذت الكلمة المطبوعة تزحم الكلمة المسموعة والخبر المنقول على ألسنة الرواة والقصاصين ، وقد صاحب اختراع الطباعة أو سبقه بقليل انتشار الورق فى أوربا فحل محل الرقاق من الجلد خلال القرن الثالث عشر ، وفى القرن الرابع عشر عمت الطباعة أكثر أنحاء أوربا ففى عام ١٤٦٤ أنشأ « سوينهيم » و « بانارتز » الألمانيان مطبعة فى « موبياكو » بالقرب من روما ، كما أقام « يوحنا ووندلن » مطبعة فى البندقية عام ١٤٦٩ ، وبعد ذلك بعام أقام ثلاثة من الألمان هم « كرانتز » و« جيرنج » و « فريبيرجر » مطبعة فى باريس على مقربة من السوربون ، وبدأ « لامبرت » الأسبانى عمله فى الطباعة بمدينة بلنسية عام ١٤٧٤ ، وكان « وليم كاكستون » أول من بدأها بإنجلترا وكان قد تعلمها فى ألمانيا وطبع أول كتاب له عام ١٧٤٦ ، وكانت أول مطبعة فى فينا عام ١٤٨٢ وفى

أيسلندا عام ١٥٣١ ، وفى بولندا عام ١٥٧٨ ، وانتقلت الطباعة إلى العالم الجديد فكانت أول مطبعة فى المكسيك عام ١٥٣٩ . ولم تشهد الولايات المتحدة الطباعة إلا فى القرن السابع عشر ، على يد المستوطن الإنجليزى « ستيفن داى » ولم تعرف مصر الطباعة إلا خلال الحملة الفرنسية فى بواكير القرن التاسع عشر ، وكان أكثر ما يطبع فى أوربا من الكتب الدينية .

وعلى مدى الزمن أصبحت الكلمة المقروءة وسيلة الإعلام الأولى فى العالم ، ولم تعد للكلمة المسموعة مكانتها الأولى ، وكانت هى وسيلة الإعلام الأولى فى العصور الوسطى وفى بدايات عهد النهضة الأوربية على يد التجار والرحالة وجماعات « التروبادور » من المنشدين الذين يتجولون منشدين أهازيجهم الشعبية وملاحم البطولة بلغاتهم الدارجة .

وقد كانت اللاتينية أكثر وفاء بحاجات المجتمع المسيحى وتعاليم الكنيسة من اللغات الشعبية الناشئة التى يتكلمها العامة جميعا فى كل بلد أوربى ؛ لذلك كانت هى لغة الإعلام فى صورته الدينية السائدة ، أما الأخبار وملاحم البطولة وأناشيد التروبادور فقد كانت جميعًا باللغات الشعبية التى يتكلمها الناس فى كل بلد من بلدانها .

وبقيت اللاتينية لغة المعرفة والإعلام الدينى فى أوربا حتى وقت متأخر . وكانت هى وحدها وسيلة التفاهم بين شعوب أوربا المختلفة ، وأتاحت للبابوات والأساقفة سبل الاتصال بالشعوب المسيحية الناشئة فى غرب أوربا ، حين يتنقلون من بلد إلى آخر أو حين يبعثون برسائلهم إليها . وكانت هى لغة المثقفين ومن ينشدون المعرفة وما من سبيل سواها لمن ينشدها ، وعلى كل من يؤم دور العلم أن يبدأ بتعلمها كما أنها لغة الاتصال والتفاهم المشتركة لكل الناس ، وهى لغة القانون والعلم ومازالت مصطلحاتها سائدة فيهما حتى اليوم ، وحتى القرن السابع

عشر نرى « فرانسيس بيكون » و« ملتون » و « سير إسحق نيوتن » يكتبون بعض مؤلفاتهم باللاتينية .

إلا أن اللاتينية كانت لغة قلة من المثقفين ، بينما عامة الناس يتكلمون لغاتهم المحلية ففى الشمال بقيت الشعوب النوردية حفيظة على لغتها ، وما وافى القرن الثانى عشر والثالث عشر حتى أخذت تكتبها بعد أن تباينت لهجاتها وتفرقت لغات عديدة ، وهو ما حدث فى الجنوب على نفس الصورة ، ففى الشمال أفرخت اللهجات الجرمانية اللغة الألمانية الحديثة والإنجليزية والهولندية والسويدية والنرويجية والدنماركية والأيسلندية وهى التى تعرف بمجموعة اللغات الشمالية أو النوردية .

وفى الجنوب حيث سادت الإمبراطورية الرومانية وحيث كان للاتينية مكانتها الأثيرة ، كانت مجموعة اللغات ذات الأصل اللاتينى وهى الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية .

وكان أكثر ماكتب فى هذه اللغات الحديثة الملاحم الشعبية مما كان يدور على ألسنة جماعات التروبادور ، وهم أشبه مايكونون بشعراء الربابة فى مصر . والمواوى الذى كان يطوف راكبًا فرسًا على الأعيان فى الريف مادحًا اياهم ذاكرًا محاسن أسلافهم لقاء جودهم وهباتهم ، وقد إندثر المواوى وقفز شاعر الربابة إلى الإذاعة والتلفاز .

وأشهر تلك الملاحم « أغنية رولان » بالفرنسية وتروى بعض أمجاد الفرنجة و « الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة » بالإنجليزية وتروى قصة الملك آرثر وفرسانه فى حربهم للسكسون المغيرين ، إلى جانب أناشيد الحب والفروسية التى يرددها جماعات التروبادور فى كل محفل وفى بلاط كل ملك ، وكان لها تأثيرها الكبير فى الشعر الأوربى فيما بعد .

وحين أخذت هذه اللغات الجديدة تعم وتصبح لغات قومية كانت المطابع قد

انتشرت فأصبحت أكبر دعامة لنشرها وتداولها واتّساق مترادفاتها لفظًا ومعنى ، وغدت الكلمة المطبوعة وسيلة الإعلام الأولى للشعوب ودرع القوميات الناشئة .

وحينما كانت المعرفة قاصرة خلال العصور الوسطى وحتى القرن الثانى عشر على الفلسفة والفلك واللاهوت ، وكانت البوادر توحى بتطور العقل الأوربى فى النظر إلى طبيعة الأشياء حين أخذ « أبيلار » وكان أستاذًا للمنطق ، يعرض للأشياء بالتعليل والحوار ، فبدلا من المسلمات التى حفل بها الفكر القديم ، جعل يناقش ويتساءل ويعنى باختبار الحقيقة السائدة على ضوء العقل وإن جلب عليه ذلك سخط الكنيسة ونقمتها .

وكان أبيلار يحاضر فى المدرسة الكاتدرائية بباريس . وكانت باريس هى البؤرة التى شعّت منها المعارف المدرسية الجديدة إلى البقاع الأخرى ، وفيها أنشئت فى ختام القرن الثانى عشر أول جامعة وإن كان جل اهتمامها بالدراسات اللاهوتية دون غيرها ، ولكنها دراسات تفوح بريح البحث ، فقد كان سعى أبيلار « أن يفهم لكى يؤمن » وكان السؤال الذى يلح على فلاسفة المسيحية حينذاك هو « الله الإنسان » و « وماهو الله الإنسان **Cure Deus homo Deus homo** ويرى « هرمان راندال » أن هذه الرغبة العارمة والشوق الجارف لمعرفة الحقيقة كانت فى جوهرها هى الروح العلمية ، وإنها وقد استيقظت لم تكن لتشبع قط ، فلم يكن لفلاسفة تلك الحقبة ينسقون الحقائق القديمة فى وحدة متسقة ، كما كانوا يظنون ، ولكنهم كانوا يضعون حقائق جديدة زودتهم بها المعرفة الجديدة التى أخذوها عن عرب الأندلس وعرب المشرق ، وقد عرفوا أرسطو أول ماعرفوه عن العرب . حتى جاء « توما الإكوينى » فى القرن الثالث عشر فشد اللاهوت إلى حمى العقل وأكد أن العقل بالرغم من أخطاره يقود بصورة أكيدة إلى الله قدر مايقود إليه الحدس الصوفى .

وما وافى القرن الثالث عشر حتى أنشئت جامعة « بولونا » فى إيطاليا . وكان جل اهتمامها بدراسة القانون المدنى والكنسى على السواء ، كما أنشئت جامعتا أكسفورد وكمبردج فى إنجلترا ، وأخذت الجامعات تعم وتنتشر فى بقاع كثيرة .

وإلى جانب الجامعات واختراع المطبعة وظهور اللغات الجديدة كانت نشأة الدولة القومية وتميز الشعوب الأوروبية وتحررها من ربقة الإقطاع وسلطان الكنيسة ، ثم كان الانقلاب الصناعى الذى هز أركان المجتمع الإنسانى ، وبدأ ثورة جديدة هزت أركان المجتمع كما هزت الفكر الإنسانى هزًّا عنيفًا ، ودارت بالحضارة الإنسانية دورة جديدة هى التى نسميها « الحضارة الصناعية » حلّت محل حضارة زراعية سادت آلاف السنين منذ اكتشف الإنسان الزراعة واستأنس الماشية وسخرها لمطالبه .

ومع حداثة هذه الحضارة الصناعية إذ لم يمض عليها أكثر من أربعة قرون إلا أن تأثيرها فاق كل ما كان للحضارة الزراعية من تأثير برغم آلاف السنين التى سادت خلالها . فقد تقارب العالم إلى حد كبير لم يكن معروفًا من قبل ، ولولا اختراع الأسطرلاب والبوصلة ما استطاعت الكشوف الجغرافية أن تشق طريقها إلى العالم الواسع ، فقد كانت تلك هى بداية الاتصال العالمى الواسع ، كما كانت البداية لحضارة عالمية هى سمة حضارة العصر حلت محل الحضارات الإقليمية السابقة ، ولنا أن نتصور تلك الحضارات القديمة فى الشرقين الأدنى والأقصى وفى بعض البقاع الأمريكية كحضارة المايا والأزتيك ، وكل منها لا يدرى عن الأخرى شيئا ، كما وأن علينا أن نتصور كيف حررت القوى الميكانيكية الإنسان من آفتين كانتا أكبر سوءات العالم القديم هما « القنية » و « والجهل » المتفشى بين الكثرة الغالبة من الأميين . فقد كان الإنسان والحيوان هما مصدر القوى المحركة فى العالم . فسواعد البشر وقوتهم البدنية إلى جانب بعض الحيوانات المستأنسة كالحمير والخيل

والثيران هى التى تعمل . فالسفن تدفعها المجاديف التى تحركها أيدى الرجال وهى الأيدى التى تقطع الصخور وترفعها من محاجرها ، والمحراث الذى يشق الأرض لزراعتها يتعاون على جره الإنسان والحيوان ، فكانت السخرة وكان الرق هما قوام العمل قديما ، ولم يكن العمل فى حاجة إلى العقل أو المهارة أو الذكاء قدر حاجته إلى القوة العضلية . كما يقول هـ . ج . ويلز فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » – فغدا العقل – كما يقول . « أداة كاسدة لا حاجة إليها » وبقى التعليم العام قاصرًا لا حاجة لإنسان إليه ، فإذا كان ثمة حاجة إليه فللوفاء بالتعاليم الدينية والإعلام الدينى ، فلما سادت الآلة حررت الإنسان من العبودية والرق والسخرة ، بل أصبح الرقيق عالة على صاحبه إلا فى المجتمعات الزراعية كما كان فى الجنوب الأمريكى حيث تعتمد الزراعة الواسعة على سواعد الرجال وهو ما يفسر لنا الخلاف بين الشمال الصناعى والجنوب الزراعى فى الولايات المتحدة حول قضية تحرير الرقيق وهو الخلاف الذى أدّى إلى الحرب الأهلية الأمريكية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . كما حررته من الأمية السائدة حين أدرك رجال الصناعة ألا محيص عن التعليم لكى يحصل العامل على الكفاية الصناعية على الأقل ، ولنا أن نقول – كما يقول ويلز – إن التعليم الشعبى كان ثمرة من ثمار حلول الآلة محل العمل اليدوى . بل إنه يرى أن حاجة العامة إلى التعليم قد فاقت مقابلها لدى الصفوة ، وفاق الاهتمام به الاهتمام بتعليم الصفوة ، وهو ما يفسر لنا كيف أصبح التعليم الأولى إلزاما لدى كافة الدول .

ولم تعد غاية الإعلام أو وسيلته إطارها القديم حتى كان الانقلاب الصناعى فقلب موازين الحياة والحضارة ، إلا أن التغير كان وئيدًا فى البداية فلم يسفر عن آثاره ولم تتضح معالمه إلا فى بدايات القرن التاسع عشر حيث أفرخ الانقلاب الصناعى ما يعرف بالثورة الصناعية وهى ثورة الفكر والمجتمع بكل ما هو قديم . فمنذ خطا الإنسان خطواته الثابتة على مدرج الآلة كانت خطوة حياته المادية أوسع

كثيرا من كل خطاه خلال الفترة التى عاشتها الإنسانية من العصر الحجرى حتى الانقلاب الصناعى ، بل إن خطاه خلال نصف القرن الأخير تزيد على كل ماخطاه فى ميدان التقدم خلال القرنين الأخيرين أضعافًا مضاعفة ، ولنا أن نتصور أن نابليون قطع مسافة ألف وأربعمائة ميل من فلنا إلى باريس فى انسحابه إثر هزيمته فى روسيا فى ثلاثمائة واثنتى عشرة ساعة بمعدل خمسة أميال فى الساعة مع كل ماكان يملك من قدرات الإمبراطور الذى دانت له كل أوروبا بينما يقطعها راكب القطار فى أقل من يوم الآن ويقطعها راكب الطائرة فى ساعتين ، فما بالك بالوصول إلى القمر. وكان معدل سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسون عام ١٨٢٦ لايزيد على أربعة وأربعين ميلا فى الساعة ، ولم تكن حمولة أى سفينة تزيد حينذاك على ألفى طن . وقد حققت الولايات المتحدة وحدتها الفدرالية التى تكاد تسع قارة بأكملها بفضل السكك الحديدية وما كان يمكن لها أن تحققها بغير ذلك .

وسار الإعلام بخطى متوافقة مع خطى هذا التقدم المادى فى الوسيلة دون الغاية ، فإذا كان الورق والطباعة وقيام الجامعات قد زوده بوسائل جديدة أكثر سعة وامتدادًا إلا أن هذه الوسائل لم تزوده بغايات جديدة فقد اقتصرت الطباعة فى البداية على نشر الكتب الدينية وبقيت الجامعات تدور فى آفاق اللاهوت وتعاليم الكنيسة فحظيت برضاء البابوية وتشجيعها فى البداية ، فلما بدأت الجامعات تتحرر من سلطان اللاهوت وترنو إلى النظرة العلمية ظل الإعلام قاصرًا على المعرفة المدرسية وإن كانت معرفة من نوع جديد ، ولم تكن السلطة فى الدولة القومية فى حاجة إلى استهواء الرأى العام ، فحتى القرن السادس عشر كانت سلطة الملوك تعلو على كل سلطة سواها ، كما كانت الجامعات خاضعة لهم تدين بالولاء لأشخاصهم . إلا أن خواتيم القرن السابع عشر شهدت كما هائلا من الكتابات

السياسية والاجتماعية فنرى جون لوك فى إنجلترا يخوض فى طبيعة البناء الاجتماعى للدولة ، كما نرى مونتسكيو وقد جاء بعده بقليل يضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية فى بوتقة الفحص والاستقراء فيهلهل الأردية الزائفة للحكم المطلق وقام الموسوعيون فى منتصف القرن الثامن عشر باستقراء عالم جديد منشود ، وخاض رجال الاقتصاد فى نظام العمل والعمالة وإنتاج السلع وطبيعة الملكية ، وكان هذا الصخب الفكرى الذى لم تتكشف غمامته حتى الوقت الحاضر وإن ظل حبيس وسائل الاعلام القديمة حتى وقت متأخر ، وإن كان الانقلاب الصناعى قد يسر للإنسان سبل الانتقال وزود الإنسان بمعارف جديد عن الشعوب والبقاع البعيدة إلا أن وسيلتها كانت الرؤية والرواية ، حتى كان اختراع التلغراف عام ١٨٣٥ ومدّ أوّل كابل بحرى بين فرنسا وإنجلترا عام ١٨٥١ ، وآخر عبر المحيط الأطلنطى عام ١٨٦٦ ، فكان مولد وسائل الإعلام الجديدة وبداية قصة الإعلام الحديث ، أو ثورة الإعلام كما نحب أن نسميها حين أخذ التقدم التكنولوجى يسفر كل يوم عن جديد ، كما أخذت العلاقات والمصالح الدولية المتشابكة ، والفلسفات والمذاهب السياسية الجديدة ، وقوة الرأى العام القومى والدولى ، واتساع رقعة المواصلات البرية والجوية والبحرية وامتدادها وتقدمها ، وقيام المنظمات الدولية والإقليمية تزود جميعا الإعلام بغايات ووسائل جديدة طوت صفحة الزمان والمكان .

فإذا كان اختراع الطباعة قد أدّى إلى ذيوع المقروء وانتشاره فإن أول مطبوع نشره جوتنبرج فى منتصف القرن الخامس عشر كان إنجيل مازران ولم تكن الصحافة كما نعرفها اليوم وليدة هذا الاختراع الهام ، وإن عرف العالم أنواعًا من الإخباريات فى وقت مبكر سبق اختراع الطباعة بقرون ، ففى روما كان يوليوس قيصر يصدر نشرة يعلقها فى الأماكن العامة ، كما يقال إن الصين قد عرفت نوعًا من الصحافة فى القرن الثامن ، كما كان الإخباريون فى إيطاليا وفى إنجلترا وألمانيا

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ينسخون الأخبار يمدون بها من يعنى بها ثم أخذوا يطبعونها بعد ذلك .

وقد سبقت إنجلترا غيرها فى إصدار الصحف حين أصدر « ناثانيل بتر » صحيفة « ويكلى نيوز » عام ١٦٢٢ ، وبعد ذلك بتسع سنوات أصدرت فرنسا أول صحيفة رسمية خلال حكم « الكاردينال ريشليو باسم « لا جازيت دى فرانس » وتوالى بعد ذلك إصدار الصحف الرسمية فى دول أوربا .

إلا أن الصحافة الحديثة لم تعرف إلا فى نهاية القرن الثامن عشر حين أثبت الرأى العام وجوده قبل الدول وحين تحررت الكلمة المنشورة من قيود الرقابة التى فرضتها السلطة عليها من قبل ، وحيث أدى الانقلاب الصناعى إلى تقدم هائل فى الطباعة بعد أن استخدم « فردريخ كوينيج » .. الألمانى الطاقة التجارية فى تشغيل المطبعة ، عام ١٨١٠ ، ثم أخذت وسائل الطباعة تتقدم بتقدم الآلة ، ففى عام ١٨٤٧ ، وضع « ريتشارد مارس » تصحيحا لمطبعة دوارة ثبتت فيها الحروف على أسطوانة ، وفى عام ١٨٦٦ سجلت بإنجلترا آلة طباعة ذات ألواح منحنية تسبك عليها الحروف ، وعند نهاية القرن التاسع عشر اخترعت آلات جمع الحروف ، وأخذت الطباعة السريعة التى تطبع آلاف الصفحات فى الساعة تعم العالم وأصبحت الكلمة المقروءة زاد المعرفة وصاحبة السلطان الأعلى فى أول وسيلة إعلامية فى العصر الحديث ، حيث بدأت الصحافة ثورة الإعلام الحديث .

فإذا كان الانقلاب الصناعى قد زود الطباعة بالآلة المحركة ، وإذا كان اختراع التلغراف قد يسر سبل الاتصال ، وجاء بعده الاتصال اللاسلكى إثر اكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية بعد الدراسات التى قام بها « جيمس كلارك ماكسويل » و « هينرش هيرتز » ونجاح « ماركونى » فى الاتصال عن طريق الموجات ، ليزود الإعلام بوسائل جديدة ، فإن الإعلام فى غاياته لم يكن نتيجة

هذا التقدم التكنولوجى فى وسائل الاتصال والمواصلات وإنما كان نتيجة القوة التى أصبحت للرأى العام على المستويين القومى والدولى ، وحاجة العالم إلى المعرفة الجديدة فى كل دروبها ومعانيها واتجاهاتها ، فأصبحت الصحافة والإذاعة الصوتية والمرئية ووكالات الأنباء والسينما ، فضلا عن الكتاب ووسائل الإعلام القديمة ، وهى وسائل لم تستطع وسائل الإعلام الجديدة أن تزيحها عن مكانها بل غدت عونًا لها ودعامة هى أقوى دعاماتها ، فالخطبة والندوة والحديث والدعوة والدعاية لم تعد حبيسة الأماكن الضيقة بل حملتها وسائل الاتصال الحديثة إلى أبعد الجهات .

وقد رأينا كيف عجزت المطبعة عن أن تكون وسيلة من وسائل الإعلام فى البداية وقصرت همها على الإعلام الديني وإن يسرت نشر الكتاب وذيوعه ، وإن وكالات الأنباء قد أنشئت فى البداية لتكون فى خدمة الدبلوماسية والتجارة وأسواق المال ، فإنها لم تستهو ولم تجذب إليها الصحافة الناشئة، فحين أسس « هافاس » أول مكتب للأنباء فى باريس عام ١٨٢٥ ، لم يلق من الصحف تأييدا أو قبولا فرفضت عرضه بمدها بالأنباء . ولم تكن وكالة أنباء هافاس فى باريس ووكالة أنباء نيويورك التى سبقتها بخمس سنوات أكثر من صورة مطورة للبريد حل فيها الخبر العام محل الرسالة الخاصة . ثم أصبحت وكالات الأنباء مع نشأة الإعلام الدولى ، وقوة الرأى العام الجديد أبرز وسائل الإعلام الدولى وتداول الأنباء الدولية فلم تعد تستغنى عنها وسيلة من وسائل الأخبار مكتوبة أو مذاعة .

الإعلام وثورة التكنولوجيا :

ولئن أمدت المطبعة الإعلام بزاد جديد من السعة والانتشار إلا أنه ظل قاصرًا على الفئة القارئة وإن عداه عن طريق هذه الفئة القارئة ، إلى الاستماع ، فإن عداها إلى السلطة فى أية صورة من صورها فإن الاستماع هو وسيلته الوحيدة ،

ونعنى به الاستماع المباشر فى الندوات والمحافل ودور العبادة . إذ أن الاستماع سيبقى وله المكانة الأولى فى عالم الإعلام ولكنه سيغدو مع ثورة التكنولوجيا استماعًا غير مباشر ، فمازال المتحدث والحديث والمستمعون كما أشار إليهم أرسطو فى حديثه عن الخطابة . هى العناصر الأساسية للإعلام . ولكن الحديث لم يعد من الفم إلى الأذن مباشرة ولكنه يطرقها عبر وسائل رائعة طوت صفحة الزمان والمكان . غدت معها الكلمة المطبوعة والمقروءة ، وإن فاقت فى الوقت الحاضر ما كانت عليه منذ اخترع جوتنبرج الطباعة ، وسيلة قاصرة فى عالم جديد تسيطر عليه قوى الكهرباء ، فلم تكن الكلمة رسالة أو كتابا أو صحيفة تتجاوز سرعة حاملها ، فلما اخترع التلغراف عبرت الكلمة حاجز المكان كما عبرت معها وسائل الانتقال باختراع القاطرة البخارية الحواجز التى كانت تفصل بين الجماعات البشرية وذابت معها العوائق التى كانت تجعل من هذه الجماعات البشرية وحدات مجتمعية قائمة بذاتها مكتفية بعالمها المحدود وإنتاجها الضيق . كما كانت فى العصور الوسطى أو فى الإمبراطوريات التى يتهاوى فيها سلطان المركز على توابعه البعيدة . ولقد كان للقاطرة البخارية حين امتدت خطوطها عبر القارة الأمريكية الفضل الأول فى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان لها دورها البارز فى نقل المعدات والجيوش فى الحرب الأهلية التى دارت بين الشمال والجنوب .

وانتقلت الكلمة المطبوعة مع هذه السرعة النسبية للمواصلات إلى آفاق أكثر سعة وامتدادا حتى انفصلت الكلمة عن معابرها الأرضية لتسلك أجواز الفضاء ، وكان اختراع التلغراف ثم التليفون هو البشير بهذا الانفصال وإن لم يجاوز حدود الانفصال إلى الانفصام ، فقد بقيت للمعابر الأرضية التى تسلكها السيارات والخطوط الحديدية وتهبط إليها الطائرات أهميتها البالغة فى الاتصال ، فإذا كانت وسائل المواصلات بما حققته من تقدم يفوق كل تصور للعقل حتى وقت قريب

فإنها وإن طوت صفحة المكان لم تطو إطلاقًا صفحة الزمان ، فالمسافر الذى يتناول إفطاره فى القاهرة وغذاءه فى لندن وعشاءه فى نيويورك قد تحرر من أبعاد المكان ولكنه حين يصل نيويورك قد يجد فى انتظاره برقية أرسلت إليه بعد قيامه بساعات وسبقته قبل وصوله بساعات . إلا أن هذه النقلة لم تحدث فى يوم وليلة ، فبين اختراع التلغراف عام ١٨٣٢ واكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية عام ١٨٧٣ وقيام ماركونى بنقل الإشارات الطويلة عام ١٨٩٥ . ثم أجرى أول اتصال عبر الأطلنطى عام ١٩٠١ وما انتهت إليه دراسات الموجات الكهرومغناطيسية من اختراع الراديو والرادار وأخيرا التلفزيون كانت هذه الثورة التكنولوجية تأخذ أبعادها التى أدت إلى هذا التطور الذى انتهت إليه بالتسيير الذاتى والسبرناطيقا والكمبيوتر والتليستار .

وفى الوقت الذى كانت فيه الثورة التكنولوجية تحقق أبعادها فى عالم الاتصالات ، أخذت تطرق آفاق الإعلام وتدق أبوابه بعنف أشد وأقوى مما كان منها فى عالم النقل والمواصلات والاتصال ، فبينما سار التلغراف فى كنف الخطوط الحديدية ينظم مسيرتها ، حتى غدت صورة عامل التلغراف لدى الأمريكى - كما يقول مارشال ماكلوهان - لصيقة بصورة ناظر المحطة ، وهو مارأيناه نحن فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن أيام كانت تمتد سكك حديد الدلتا فقد كان ناظر المحطة هو عامل التلغراف ، نراه يقتحم عالم الأنباء ، ولما يتجاوز عمره أربع سنوات ، فيحمل كبريات الصحف الأمريكية على إنشاء أول وكالة للأنباء عام ١٨٤٨ ، أصبحت فيما بعد الأساس الذى قامت عليه وكالة الأسوشيتدبرس للأنباء وقد سبقتها وكالة « هافاس » إلى الوجود عام ١٨٢٥ وإن قامت فى البداية على خدمة المال والتجارة ولكن سرعان ماجذبتها الصحافة إليها بعد أن احتل الخبر مكانته فى الصحيفة ، وكانت الصحافة قد أخذت تحتل مكانتها الأثيرة النامية فى

عالم الإعلام ، ولم يزحزحها عنها أية وسيلة إعلامية أخرى حتى وقتنا هذا ، وغدا للخبرِ من التأثير على الرأى العام أكثر مما لمقالات الرأى والمقالات الافتتاحية بل غدت الأخبار المثيرة أداة لجذب القارئ وزيادة التوزيع ، وقامت صحافة جديدة وجدت لها سوقًا رائجة بين القراء تستغل عنصر الإثارة والتشويق فى أى خبر غريب قد لايعنى الرأى العام بقدر ما يمتع القارئ ويسليه ، وأخذت الصحافة تغفل مقالات الرأى والافتتاحيات المطولة ليحل محلها « العامود » أو التحقيق الصحفى لخبر أو واقعة بتفصيل مسهب يقوم على التشويق حتى انزوى الفكر فى الصحافة اليومية فى حيز ضيق ، مما أدى بالتالى إلى قيام صحافة فكرية تتناول ماتفعله الصحف اليومية فتصدر صحفية التيمس الإنجليزية ملحقيها الأسبوعيين الأدبى والاقتصادى وتصدر صحيفة السياسة المصرية ملحقها الأسبوعى « السياسة الأسبوعية » كما يصدر البلاغ « البلاغ الأسبوعى » فى العقد الثالث من هذا القرن كما صدرت من قبل مجلتا المقتطف والهلال لتسدّ هذا النقص فى الصحافة اليومية التى طغى عليها الخبر حتى فيما يتعلق بالرأى السياسى .

وقد لانردّ ذلك إلى إيثار الناس للخبر على المقال قدر ماترده إلى الثورة التكنولوجية فى وسائل الإعلام بدءًا باختراع التلغراف والتليفون وانتهاءً بالتلفزيون والأقمار الصناعية (التلستار) حين جعلت مايحدث فى أية بقعة فى العالم قريبًا إلى أذن السامع وبصره .

وما من شك فى أن التغير الاجتماعى وليد تكنولوجيا مستحدثة مهما بدت أمامنا ضئيلة ، فاستخدام الفراعنة للعجلة الحربية فى الدولة الحديثة قد أدى إلى انسياح المصريين خارج حدودهم وقيام الإمبراطورية المصرية التى امتدت إلى أعالى الرافدين شمالا وإلى أرض كوش والشلال الخامس جنوبًا ، ويرى « لين هوايت »

فى « تكنولوجيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى »[1] أن استخدام الغرب للسرج والمهموز فى ركوب الخيل قد أدى إلى ظهور طبقة الفرسان فى أوربا العصور الوسطى ، فأصبح المحارب الراجل منذ عصر شرلمان يعرف « بالفارس » بل إن هوايت ليرى فى « اللجام » و « حدوة الحصان » أداة تكنولوجية مستحدثة مكنت الفارس من السيطرة على حصانه ، كما ضاعف من سرعة الحصان وقدرته على التحمل .

وإذا كانت الطباعة قد أدت إلى انتشار المطبوع وتداوله فكانت سندا للكتاب فإنها هي التى أدّت دون غيرها إلى قيام هذا العالم الفريد الذى نسميه عالم الصحافة تغذيها تكنولوجيا العصر بالانتشار والذيوع والثبات ، فقد أفادت من وضع نظام للبريد ولكنها أفادت أكثر من تقدم تكنولوجيا النقل والمواصلات . فإذا كان « هافاس » قد استعان بنظام البريد حين أنشأ وكالته عام ١٨٢٥ ، كما استعان بإشارات السيمافور والحمام الزاجل ثم بالتلغراف بعد اختراعه فأغناه عن وسائله القديمة ، فإن اختراع التلغراف كان هو الأداة التى قامت عليها وكالات الأنباء التى امتدت ونمت مع التقدم التكنولوجى لتربط العالم برباط وثيق من المعرفة المتبادلة ولتحول العالم إلى تلك القرية الصغيرة التى لا يغيب فيها شىء عمن يقطنون فى حواريها البعيدة ولتكون زادًا للصحافة يمدها بكل ما يجرى من أحداث فى العالم على سعته ليعلم بها كل إنسان فى الأرض لحظة وقوعها أو بعدها بدقائق .

ولقد سار التقدم التكنولوجى فى خدمة الإعلام مواكبًا بعضه البعض ، فالتقدم التكنولوجى فى وسائل المواصلات قد يسر نقل المطبوع والمنشور والمسموع والمصور بسرعة تفوق أى خيال يتصوره أى إنسان قبل نصف قرن أو أقل كما كان لتكنولوجيا الطباعة الحديثة من الأثر ما يفوق تكنولوجيا النقل والمواصلات فالمطبعة

---

(١) White, L.: Medieval Technology and Socia lChange.

تقذف بآلاف الأعداد من الصحيفة إلى يد الموزع فى ساعات قلائل ، حتى اقتحمت التكنولوجيا ميادين أخرى للإعلام لم تخطر على بال إنسان فانتقلت بالرسالة وبالصورة من إطارهما المباشر إلى إطارهما غير المباشر بمعنى أن الكلمة لم تعد حديثا من الفم إلى الأذن بين شخصين أو من شخص إلى مجموعة من الناس يواجهونه ويستمعون إليه بل أصبحت حديثًا يقتحم الآذان مع صورة تتجلى للعين على مدى آلاف من الأميال فطوت بذلك صفحة الزمان والمكان على سطح الكرة الأرضية وغدا تسجيل الأحداث بالكلمة والصورة وثيقة تاريخية للأجيال القادمة . وقد تنجح هذه الأجيال فى بعث الأقوال والأحاديث التى طواها الماضى ولكنها مازالت تسبح فى أجواء الأثير فيغدو العالم من مبتداه صورة بينة أمامها ولاندرى كيف يكون حال العالم وفكره حينذاك يوم يكتشف مساره التاريخى على حقيقته .

ولئن سبقت الرسوم والخرائط عالم الفوتوغرافيا فقد كانت وافية بحاجات العالم القديم ولكنها مع اتساع المعرفة وذيوع الكلمة المطبوعة فى كتاب أو صحيفة فقد غدت أدوات وإن بقيت لها مكانتها المدرسية قائمة ولكنها أصبحت قاصرة عن مواكبة التطور فى عالم الطباعة وفى عالم الصحافة وقد أخذت الصحيفة تشد الناس إليها بشوق بالغ وزودها انتشار التعليم الشعبى بحاجتها إلى الذيوع والانتشار كلما انتشر التعليم فى جماعة من الجماعات كلما ازداد توزيع الصحف وتعددت أنواعها ومنابرها .

وللصور والرسوم جاذبيتها فى عالم الصحافة ومازلنا نذكر فى صبانا « مجلة الأولاد » التى كان يصدرها الإخوة مكاريوس عن دار اللطائف المصورة فى العقد الثالث من هذا القرن ، فقد كان لكل موقف من مواقف القصة فى تسلسلها رسم يبرزه ويمكنه ، وكان الإخوة مكاريوس من الرواد الذين استعانوا بالصورة الفوتوغرافية فى الخبر عندما أصدرو مجلة « اللطائف المصورة » الأسبوعية ، ثم كان

الكشكول الذى أصدره سليمان فوزى عام ١٩٢١ فاتخذ من الكاريكاتير الملون أداة للتعبير الساخر وإن سبقه فى هذا المضمار يعقوب صنوع وكانت رسوم مجلاته العديدة التي أصدرها فى مصر وفى باريس من رسمه هو نفسه . إلا أن الكشكول كان الرائد الحقيقى لفن الكاريكاتير بفضل الرسام سانتس . ثم شق طريقة من بعد على يد صاروخان ورخا ومن جاء على أثرهم كصلاح جاهين .

وقد واكب التصوير الضوئى التلغراف فى نشأته ، فى الوقت الذى نجح فيه « جوزيف مينسفور بينبس . فى اخراج أول صورة ضوئية عام ١٨٢٢ ، وتوالت الجهود من بعده حتى أدخل جورج إيستمان الشريط الملفوف فحل محل الألواح الزجاجية فى آلة التصوير عام ١٨٨٤ فأخذ التصوير الضوئى يقتحم ميدانه فى حياة العصر ، وكان التلغراف قد أثبت وجوده وإن جاء اختراعه لاحقا لاختراع التصوير الضوئى بعقد من الزمن فاقتحم دنيا الإعلام قبل أن تقتحم الفوتوغرافيا ميدانها فى عالم الصحافة . وإن أخذت الصورة باختراع السينما فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وظهور أول عرض للصور المتحركة عام ١٨٩٥ ، وأخيرا التليفزيون وظهوره فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ثم انتشاره هذا الانتشار العالمى الواسع ، تزحم الكلمة وتكاد تقصى الكتاب والصحيفة عن مكانتها الأثيرة على الأقل فى البلدان النامية حيث تتفشى الأمية فلم تعد القرية المصرية مثلاً تشهد تلك اللقاءات حول قارئ الصحيفة فما من بيت يخلو من الراديو بل أصبح الترانزستور فى صحبة كل إنسان وحل اللقاء حول التليفزيون محل اللقاء بقارئ الصحيفة .

إلا أن انتشار التعليم سيبقى للصحيفة وللمقروء المكانة الأثيرة التى أثبتت بعض الإحصاءات قصور التلفزيون عن اللحاق بها ، بل كان فى بعض الأحيان سببا فى الإقبال على قراءة الصحف ابتغاء مزيد من التفاصيل عن خبر يسوقه التلفزيون أو الراديو .

وتتواكب مستحدثات التكنولوجيا الجديدة على خدمة الإعلام فالصورة

والكلمة ينقلها اللاسلكي إلى أبعد أقطار الأرض لساعتها ، والتلستار أو القمر الصناعي ينقل الصوت والصورة إلى أجهزة الاستقبال كما أصبح الكمبيوتر والتسيير الذاتي والسبرناطيقا في خدمة الصحافة وكل وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى وزادًا لكل فصائله .

عصر الإعلام

أصبح الإعلام ظاهرة من ظواهر العصر ، وغدا قوة كبرى فى حياة الأمم وفى علاقات المجتمع الدولى ، فلا تستطيع مؤسسة من المؤسسات أن تتسع وتمتد إلى عملائها دون أن يكون لها جهازها الإعلامى الذى يصلها بهم ، ويجذب إليه برهم ، ويدعو إلى إنتاجها ويربط أجهزتها الإدارية بعضها ببعض كما أصبح لكل إدارة حكومية أو أهلية جهازها الإعلامى ممثلا فيما نسميه « إدارة العلاقات العامة » تقوم بالتعريف بعملها ، وتنشر على الناس مدى ما أحرزت من تقدم أو نجاح فى عملها . فهى الداعية لها المنوهة بأثرها مستعينة بكافة البيانات التى تزودها بها الأجهزة المختلفة للعمل ، كما تقدم بين كل حين وآخر ألوانا من الترفيه تمتع العاملين بها ، وتوثق صلات الود والتعارف بينهم ، وتقيم الحفلات وتنظم اللقاءات بين رجال المؤسسة والعملاء ورجال الصحافة ووكالات الإعلان والمعلنين للتعارف

والتنويه بعملها والإعلان عنه ، فمثل هذه الحفلات واللقاءات إعلان غير مباشر عن عملها ونشاطها وإنتاجها .

ولا تستغنى دولة من الدول أو حزب من الأحزاب السياسية أو أى جماعة تعمل فى الميدان العام عن جهاز إعلامى ينوه بنشاطها ويدعو إلى سياستها ، فلكل دولة جهازها الإعلامى يبث رسالتها وينوه بثقافتها فى غيرها من الدول توثيقا لصلاتها بها ، أو جذبًا للسائحين إليها ، وقد أصبحت السياحة مصدرًا هاما من مصادر الدخل القومى ، كما يقوم فى نفس الوقت بتأييد السياسة الحاكمة على المستويين القومى والدولى ، وكلما اتسع نشاط الدولة الخارجى ، كلما اتسع وامتد نشاطها الإعلامى فى الخارج عن طريق الإذاعات الموجهة . أو وكالات الأنباء أو مكاتب الإعلام الخارجى التى تلحقها بسفاراتها ، ولم يعد عمل السلك السياسى أو القنصلى للدولة وقفًا على الاتصالات الدبلوماسية وحدها بل امتد نشاطه إلى كافة جوانب النشاط الأخرى ، فأصبح فى كل سفارة ملحق تجارى وثقافى وإعلامى بل وملحق عسكرى ولكل مايعنيها من نشاط خارجى ، ومع تباين العمل بينها جميعا فإن طابعها جميعا إعلامى فى الدرجة الأولى .

وقد احتلت الإذاعات الموجهة بعد الحرب الثانية ميدانًا هاما من ميادين الإعلام الدولى ، وأصبح لوكالات الأنباء مكانتها المرموقة فى التنويه بسياسة الدولة ونشر أخبارها ، حتى أصبح لكل دولة وكالتها القومية للأنباء ، وكان من حرص الدول النامية أو حديثة الاستقلال أن يكون لكل منها – كمظهر من مظاهر الاستقلال والكبرياء القومى – وكالة أنباء خاصة ، وأصبحت وكالات الأنباء القومية ظاهرة من ظواهر التطور السياسى فى الدول النامية . كما أصبح للاتحاد السوفيتى وتوابعه – كنوع من التكتل السياسى والمذهبى أشبه ما يكون بالتكتل القومى – وكالة تاس السوفيتية للأنباء تلتزم بسياسته وتذيع أنباءه . إلا أن وكالات

الأنباء القومية ، بقيت دون وكالات الأنباء العالمية قدرة وانتشارا .

ومع تقدم تكنولوجيا المواصلات وتشابك المصالح الدولية أصبح للإعلام الدولى أهميته البالغة فى الصراع الدولى وفى التعاون الدولى على السواء فلم تعد هناك بقعة فى العالم بمعزل عن الأخرى . فالصورة كالكلمة مسموعة ومرئية تنتقل عبر المسافات الطويلة وتطوى فى انتقالها حدود الزمان والمكان حتى غدت الكرة الأرضية - كما يقولون - قرية صغيرة .

فصائل الإعلام :

وقد اختلف الشراح حول وظائف الإعلام . وإن أجمعوا على أنها قديمة قدم المجتمع الإنسانى ، فعندما تنشأ الجماعة السياسية ، وهى الجماعة المنظمة التى يدرك الفرد فيها ذاته فى غيره . تبدو الحاجة ماسة إلى الإعلام ، فإذا كان البعض قد قصره على الجانب الاجتماعى بمعنى أنه المعبر عن ضمير الأمة وعلاقة الأفراد والمجاميع ، فإن آخرين قد عبروا به إلى آفاق أرحب وأبعد مدى وأكثر شمولا حتى غدا لتعدد آفاقه وشموله وله ولائده التى نسميها فصائل الإعلام لكل منها ميدانه الأثير به ، فإن جمعت بينها القنوات والوسائل فإنها تختلف فى الغاية وفى المدى الذى تقصده

هذه الفصائل نستطيع أن نجملها - كما نرى - فى نوعيات أربع هى : التعليم والدعوة والدعاية والإمتاع .

إلا أن هذه الفصائل مع اختلافها فى الوسيلة والغاية تعبر عن ضمير الأمة الاجتماعى وعلاقات أفرادها وجماعاتها . وإنها تصب فى النهاية فى مجرى واحد يعبر عن ثقافة الأمة واتجاهاتها العديدة .

وهذه الفصائل الإعلامية وإن كانت لها جذورها الضاربة فى القدم إلا أنها قد غدت فى حاجة إلى جهد الجماعة أو الفريق منها إلى جهد الفرد . بعد أن غدا

العمل الجماعى وجهد الفريق طابع حضارتنا المعاصرة منذ تعدى العلم والاختراع نطاق الفرد إلى نطاق الفريق حيث تتعاون الأدمغة العديدة فى ميدان معين كميدان الذرة والطاقة النووية وعلوم الفضاء والتسيير الذاتى وغير ذلك من ميادين العلم والاختراع ، فقد انتهى عصر ماركونى وآديسون وفلسنج مكتشف البنسلين وسولك مكتشف طعم شلل الأطفال ، ولنا أن نقول إنهم كانوا آخر المخترعين والمكتشفين العظام ، حل على إثرهم جهد الجماعة والتعاون العلمى والعقلى المشترك لنخبة من العلماء والباحثين فى ميدان معين .

وبالتالى أصبحت وسائل الإعلام كما أصبح الإعلام ذاته جهدا جماعيا لا يقدر عليه فرد بذاته ، تضطلع به جماعة متخصصة ومتعاونة تجتمع على هدف معين ، فإصدار صحيفة مثلا لم يعد مما يقوم به فرد بنفسه فقد غدت الصحافة صناعة كبرى لها قواعدها وأصولها لا تقوم على تمويل فردى . ولا يغامر بتمويلها فرد مهما أوتى ثراءً عريضا ، وغدت لها شركاتها المساهمة ، أويسهم فى إصدارها جماعة من المؤتلفين حول رأى أو فكر معين وغالبا ما يطلبون اكتتاب أعوانهم ومؤيديهم المالى لإصدارها . ولم يعد نشر الكتاب عملا يقوم به ناشر فرد بل أصبحت دور النشر مؤسسات كبرى أو شركات يسهم فيها الأفراد كما هى فى البلاد المتقدمة ، وغدا التعليم فى أى دولة واجبا على الدولة تجاه الأفراد بوصفه حقًّا من حقوق الإنسان فى عالم العصر ، فإذا قامت به جماعة اعتمدت على المنح والتبرعات كما يجرى فى أمريكا حيث تقوم الجامعات الحكومية إلى جانب الجامعات العامة التى تعتمد فى تمويلها على المنح والهبات والتبرع الفردى والجماعى وأعظم الجامعات فى أمريكا كهارفارد وييل وبرنستون وكلومبيا وبيركلى تقوم على المنح والهبات ، وقد حضرت كارنيجى فى حفل لجامعة برنستون وقد تبرع لبعض منشآتها بثمانية ملايين دولار ، كما رأيت جامعة هارفارد وعلى رأسها مدير شاب يصغر غيره من أساتذتها العظام سنًّا ،

فلما سألت قبل إنه أقدر الجميع على جمع الهبات والتبرعات من مصادرها العديدة ، كما أصبحت الإذاعات الصوتية والمرئية ووكالات الأنباء أجهزة حكومية كما هي فى مصر وبريطانيا والاتحاد السوفيتى ، أو تقوم بها شركات أو مؤسسات كبرى كما هى فى أمريكا .

فالعمل الجماعى هو طابع العصر وهو طابع حضارة تكنولوجية يزودها جهد العلماء المشترك بكل ما ينميها ويدفعها نحو التقدم والارتقاء ، تمتد معالمها إلى كل جانب من جوانب الحياة بما فيها أجهزة الإعلام بشتى فصائلها .

ولم تعد أجهزة الإعلام - كما نقول - قناة صغيرة تصب فى أرض مغلقة أو موجة عالية تتكسر على شاطئ مجهول بل غدت أشبه بنهر دافق يشق طريقه وسط القفر والمعمور فيزود القفر بالعمران ويضفى على المعمور زادًا أبعد وأكثر سعة وأقوى نماء .

ولا تنفصل فصائل الإعلام عن بعضها ولا تستقل واحدة منها عن الأخرى ، بل إنها تتصل وتتداخل وتبدو وكأنها تدور فى فلك واحد ، وإن كان علينا ألا نخلط بينها ، فلكل منها إطاره ومداه . فالإعلام - كما قلنا - مصطلح حديث وإن كانت له دلالاته وصوره القائمة منذ القدم . إلا أنه فى وقتنا هذا ومع اتساع المجتمع الإنسانى وتقاربه ووحدة الحضارة العالمية والتقدم التكنولوجى فى وسائل الإعلام وأدواته قد أصبح علما له أصوله وفلسفته التى يقوم عليها ، كما أصبح لكل فصيلة من فصائله صورها وأنماطها العديدة ، فالتعليم وإن اتحد مرماه يتخذ أساليب ووسائل عديدة وقد يكون وسيلة لتأييد نظام سياسى على الآخر ، أو أداة لدعم النظام الاجتماعى فى مجتمع مفتوح أو مغلق . كما هو فى المجتمع الشيوعى والمجتمع الرأسمالى . والدعاية هى الأخرى لها أنماطها العديدة ، تختلف بين كل دولة وأخرى وبين مجتمع ومجتمع آخر وفقا لاتجاهات كل دولة ونظامها السياسى ، فالدعاية

السوفيتية غير الدعاية الأمريكية وغير الدعاية النازية ، بل إن الإمتاع ذاته قد يصبح أداة للدعاية ويمضى فى الاتجاه الذى يرضى عنه النظام السياسى ، أو يكون صورة لما يرضى عنه الناس ويشبع مزاجهم الاجتماعى والثقافى .

وهذه الأنماط المتفاوتة لفضائل الإعلام هى التى تسمى خطأً « بالنظرية » فليست هناك نظرية للإعلام وإنما هناك فلسفة إعلامية تتعدد وتتفاوت من خلالها أنماط الفضائل الإعلامية ، وإن اتخذت من وسائل الإعلام أداةً لها ومسلكا إلى غايتها .

فإذا قلنا إن الإعلام هو التعبير عن حقيقة واقعة بصورة موضوعية فإنه يغدو بهذا أقرب ما يكون إلى التعليم وتزويد الناس بالمعرفة ، فالتعليم وهو أبرز فضائل الإعلام وأبعدها أثرًا ، يقوم على تزويد الأفراد والمجموع بالخبرات والمعارف القديمة والجديدة على السواء إعدادًا لحياة قادمة يستقبلها الناشئ قادرًا عليها متمكنا منها ، أو تزويد الكبار بالجديد من الخبرات والمعارف التى فاتتهم فى سن التنشئة وإن اعتمدت على التعليم الذاتى ، فإنها جميعا تقوم على ما يقوم عليه الإعلام من التعبير عن حقيقة واقعة بصورة موضوعية ، ويبدو بذلك قريبا منه أو شبيها به وإن لم يكن إلا فضيلة من فضائله ، فالإعلام أبعد مدى . وأكثر رحابة من التعليم وأشمل منه استيعابا للحقائق والمعارف والخبرات العامة غير ملتزم كالتعليم بمنهج محدد .

وإذا كان التعليم إلمامًا بالمعارف الثابتة والتعبير عنها بصورة موضوعية مجردة ، أو بعبارة أخرى ، نقل التراث الاجتماعى والثقافى من جيل إلى جيل ، أو بلغة التربويين تزويد الناشئة بخبرات الماضى لتكون أساسا وقاعدة للتعامل والتكيف مع معرفة جديدة طارئة ، فإن معارف الماضى الثابتة أو حقائق الحاضر المعلومة قد تفسر وفقًا لمفهوم الدولة السائد بما ينقلها من ميدان المعرفة الخالصة إلى ميدان المعرفة الموجهة . وفى هذا يختلط إطار التعليم بإطار الدعاية وتكون رسالة التعليم تفسير هذه

المعارف الثابتة تفسيرا يتفق واتجاه الدولة القائمة ديمقراطية كانت أم أوتوقراطية . فردية كانت أم جماعية أبوية هى أم دستورية .

وإذا كان هذا التفسير مما يصعب فى العلوم البحتة ويتيسر فى العلوم الإنسانية فإن العلوم الإنسانية هى ميدان الإعلام الرحب ، وهى التى يتكون من خلالها ضمير الأمة الاجتماعى ، فإذا التوت التوى معها ضمير الأمة الاجتماعى وتمزق فيبهت تفكيرها وتتخبط خطاها ويعجم عليها سبيلها للتقدم والارتقاء ، فالإعلام حين يفتات على الموضوعية ويتجرد من الحقيقة يفقد حرية التعبير ، ويجرد الإنسان من حريته ويقضى على استقلاله الذاتى وتميزه الفردى فيتمزق فكره ووجدانه .

وقد يرى البعض فى هذا التعليم ضربًا من الدعاية ، أو هو الدعاية ذاتها ، فالدعاية كما يراها المعلق الأمريكى « ولتر ليبمان » هى محاولة التأثير فى تفكير الناس لغاية معينة لاتستقيم مع الحقيقة أو القيم السائدة فى زمان ومكان معينين ، فهى إلى الاستهواء أقرب منها إلى الإقناع » . إلا أننا نرى أن هذا الاستهواء ليس بذى جدوى مالم يقم على نوع من الإقناع ، وفى هذا تبدو قدرة الداعية على إبراز الحسن وستر القبيح ، ولكنها لاتجور على الحقائق الصلبة التى يتفق عليها الناس ، فإذا جارت عليها فقدت قدرتها على الاستهواء وجذب الناس ، إلا أن بعض الحقائق الصلبة قد يختلف فيها التفسير كما تختلف نظرة الناس إليها ، حيث تحكم المنفعة نظرة الناس وتفسيرهم للأشياء فبقدر ما كانت دعاية النازى للمجال الحيوى للريخ الثالث تلقى قبولا من الألمان بقدر ما كانت تلقى العداء والاستهجان من جانب الفرنسيين والإنجليز ، فكان الألمان يفسرونها بأنها حقهم فى الحياة وكان الإنجليز والفرنسيون يفسرونها بأنها الرغبة فى العدوان والنزعة إلى الحرب ، وإن كانوا جميعا قد تناسوا مصالح البلدان الأخرى التى يدور حولها الصراع الاستعمارى ، وقد قامت نظرية المجال الحيوى للريخ الثالث على تقنين جيوبوليتيكى للعلامة الألمانى

هوسهوفر وهو تقنين يقوم على حقائق موضوعية صلبة تستهوى الألمان وإن لم تستهو غيرهم .

فالميل هو أساس الاستهواء ، والدعاية ليست عملية استهواء فارغة من المضمون أو خالية من الحقائق الموضوعية التى ترتكز عليها وتؤيدها ، ولابد أن تقوم على ما يقوم عليه التعليم من الحقائق الثابتة ، ولكنها تختار منها ما يؤيد دعواها ويسند دعايتها .

فالدعاية مهما لجت فى الإثارة والاستهواء فإنها لا تحقق غايتها مالم تنفذ إلى عقول المستمعين عن طريق الحقائق السائدة وإن فسرتها على مزاجها « فالواقعة مقدسة والرأى حر » كما نقول فى المنهج العلمى لفلسفة التاريخ .

وللدعاية أنماطها وميادينها العديدة فهناك الدعاية السياسية والدعاية الحزبية والدعاية التجارية والسياحية وغير ذلك مما يخضع للاستهواء .

أما الدعوة وهى فصيلة من فصائل الإعلام فإنها تأتى وسطًا بين التعليم والدعاية ، كما تقوم عادة على شىء جديد كل الجدة كالدعوات الدينية ودعوات الإصلاح الاجتماعى أو الدعوة إلى فكر سياسى أو مذهب اقتصادى جديد .

فالدعوة إلى نبذ القديم وسلوك الجديد دعوة وليست دعاية ، فالدعاية هى لما هو قائم وماثل ، والدعوة هى لشىء جديد يخرج به صاحبه إلى الناس داعيا إياهم إليه وقد تكون الدعوة لشىء قائم وماثل فعلا ولكن البعض لا يعرفونه ، كالدعوة إلى الإسلام أو المسيحية بين جماعات لاتعرفهما كالجماعات الوثنية فى أفريقية ، أو الدعوة إلى سنن السلف الصالح والعودة إلى نقاء الإسلام والوحدانية الخالصة كما كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى نجد أو دعوة جمال الدين الأفغانى إلى الجامعة الإسلامية ودعوة محمد عبده إلى فتح باب الاجتهاد من جديد ودعوة ماركس إلى الشيوعية .

فالدعوة ترمى إلى تغيير مفهوم قديم بآخر جديد ، وفى هذا تتحرر من عامل الشك الذى يلتبس بالدعاية ، فإذا كانت الدعاية عملية استهواء فإن الدعوة عملية إقناع ، وإن كان الاستهواء يرمى إلى الإقناع أو يؤدى إلى الإقناع ، والخيط الدقيق الذى يفصل بين الدعوة والدعاية أن الدعوة تلتزم بأفق ثابت لايتغير ، الغاية فيها بينة واضحة تسفر عن نفسها فى قوة وجلاء لاتلتوى ولا تتحيف ، ولكن الدعاية وإن التزمت بالغاية فإنها تتخذ إلى غايتها مسارب شتى للاستهواء لاتعنيها الحقيقة قدر ما تعنيها الغاية ، فأى وسيلة إلى الاستهواء هى المثلى . وقد يلفها الطمع والنفع فالناس ينكرون ويؤيدون تبعا لما يجره عليهم التأييد أو الإنكار من منفعة أو مضرّة .

والإمتاع أو التسلية فضيلة من فضائل الإعلام هى الأخرى ، ولكنها فضيلة تشارك الفضائل الأخرى فى غايتها ، فليس الإمتاع للترفيه أو التسلية فحسب ، ولكنه التعليم مغلفًا بالحلوى ، والدعوة متسترة وراء الملحة أو الطرفة أو القصة المزجاة أو الأسطورة السارية أو فى أغنية أو نشيد يرددهما الناس لما فيهما من تنغيم وطرب أو فى مسرحية تعرض أو فلم سينمائى يراه الناس ، وكذلك الدعاية وخير دعاية لسلعة من السلع ما كان فى أغنية أو تمثيلية قصيرة ، وقد تتخذ الدعاية السياسية أمشاجًا من البطولة تستثير الإعجاب فتحجب الإثارة الحقيقة وتشفع للخطأ ، وقد أثار الإعجاب بنابليون وحروبه وجدان الفرنسيين فنسوا ما لحقهم من خسائر الحرب وهاموا بالإمبراطورية بديلا للجمهورية التى ثاروا من أجلها وحملهم المجد النابليونى على تتويج نابليون الثالث إمبراطورًا على فرنسا . فلما أسر فى معركة سيدان أول سبتمبر ١٨٧٠ كانت تلك نهاية المجد الإمبراطورى وعودة الجمهورية .

وكانت تلك الحرب التى عرفت بالحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا الناشئة بقيادة بسمارك عملا من أعمال الإثارة التى أورتها الدعاية ، فقد كان بسمارك ينشد إثارة فرنسا وجرها إلى الحرب تحقيقا لسياسته فى الوحدة الالمانية وكان يعرف أن

فرنسا لن تسمح له بضم الولايات الألمانية الجنوبية إلى الوطن الأم فعمل على أن يثير فرنسا لتعلن الحرب عليه وتكون هى البادئة بالعدوان ، وكان الخلاف على وراثة العرش الأسبانى حين طلبت فرنسا أن يعلن أل هو هنزلرن رفضهم لعرش أسبانيا واهتبل بسمارك الفرصة وعد ذلك إهانة لحقت بملك بروسيا وسرب الخبر محرفًا إلى الصحف الألمانية وتناولت الصحف الفرنسية الخبر وعدته إساءة لحقت بفرنسا ، فأثارت خواطر الفرنسيين ، وكان ذلك يوم ١٤ يوليه حيث يحتفل الفرنسيون بعيدهم القومى ، ولم يملك البرلمان الفرنسى أمام ثورة الرأى العام إلا أن يعلن الحرب على ألمانيا .

الإعلام والمعرفة :

وتستند فصائل الإعلام بكل أنماطها وفى شتى مناحيها على حصيلة من المعرفة العامة والخاصة ، فالمعرفة هى الدعامة الكبرى لرجل الإعلام وأداته التى لا يستغنى عنها ، والمعرفة العامة هى المعرفة العريضة الواسعة التى يستمد منها رجل الإعلام مادته الإعلامية ويصوغ من خلالها أفكاره ، والمعرفة الخاصة هى ذلك الإطار المحدود من المعرفة العميقة فى فرع من فروع المعرفة العامة ، وهى الأساس الذى يقوم عليه النمط الإعلامى لأى فصيلة من فصائل الإعلام ، فالمعرفة الدينية هى قوام الإعلام الدينى ، والمعرفة السياسية هى قوام الإعلام السياسى ، ومعرفة السوق هى قوام الإعلام التجارى ، والمعرفة بالتاريخ والمعالم والآثار هى قوام الإعلام السياحى .

إلا أن المعرفة الخاصة لابد وأن تستند لدى رجل الإعلام إلى ركيزة حافلة من المعرفة العامة تتصل بالمعرفة الخاصة بأوثق رباط ، فليس الحديث فى الدين كالحديث فى السياسة أو الحديث فى الأدب أو فى العلم ، وحتى هذه الأنماط من

المعرفة الخاصة لها فروعها وتشعيباتها . فالمعرفة الدينية وهى فرع من فروع المعرفة العامة تقوم على شعب عديدة من الدراسات الدينية هى فى الإسلام علوم القرآن والحديث والسنة والتفسير والمذاهب الأربعة ، تستند إلى حصيلة وافرة من المعرفة العامة بالتاريخ الإسلامى وعلم الاجتماع وعلوم الإنسان والدين المقارن ، كما تقوم المعرفة السياسية على دراسة النظرية السياسية والعلاقات الدولية والقانون الدولى فضلا عن المعرفة العامة بالتاريخ السياسى والاقتصادى وعلوم الاجتماع السياسى والجيوبولتكس ودراسة الرأى العام وتحليل الخبر . وإن كنا لا نطلب من رجل الإعلام أن يصل إلى درجة التخصص الدقيق ولكن عليه أن يلم من كل منها بطرف مالم يتخذ ميدانا معينا من ميادين المعرفة أساسًا لنشاطه الإعلامى فإن عليه أن يلم بكل ما يتصل بميدانه من المعارف الدقيقة ، فرجل الإعلام الإسلامى يجب أن يكون على معرفة واسعة ودقيقة بكل فرع من فروع الدراسات الإسلامية فضلا عن حفظ القرآن والإلمام بتفسيره ، كما أن على رجل الإعلام السياسى أن يلم بكل خوافى السياسة وحوشيها إلمامه بمسيرة العلاقات الدولية . وعلينا أن نعرف أن البسيط جزء من المركب وأن الخاص جزء من العام وان المعرفة المجردة تقوم على إدراك المحسوس .

ولما كان الإعلام يقوم أصلا على الاتصال بالناس فهناك من يريد أن يبث رسالته إلى جماعة من الناس فليس هناك إعلام بين فرد وآخر فمثل ذلك لا يعدو كونه حديثًا بين شخصين سواء كان حديثا مباشرا أو عن طريق المسرة أو رسالة يكتبها إنسان إلى آخر وإن تضمنت معرفة جديدة أو خبرًا يهم كليهما ، فشرط الإعلام أن يكون بين مرسل له شخصيته العامة التى يهم الناس سماعها فهو إنسان مسئول فى قيادة نقابية أو حزبية أو قيادة حكومية أو صاحب معرفة أو فكر يعنى بها الناس ، والمستقبل جماعة أو فريق تجمع بينهم اهتمامات مشتركة ، وبين المرسل والمستقبل

يكون الفعل ورد الفعل وبين الفعل ورد الفعل تقع المعرفة الوسيطة وهى قدرة المرسل على التأثير بذكائه ومعرفته العامة بالمستقبلين واتجاهاتهم وثقافتهم ومعرفته الخاصة بما يبثه إلى مستمعيه أو مستقبلى رسالته ، وبقدر ما يكون التأثير يكون ردّ الفعل إيجابًا ، فإذا عدم التأثير يكون ردّ الفعل سلبًا وإن تكن دورة الإعلام قد تمت كاملة ومرت بكل عناصرها من المرسل أو المصدر والرسالة التى يبثها إلى القناة التى تمر بها رسالته إلى المستقبل ليكون التأثير ورد الفعل .

اللغة والمعرفة :

اللغة هى أداة التعبير والتفاهم المشترك بين جماعة من الناس . وكلما امتدت اللغة واتسعت كانت أداة كبرى للثقافة الإنسانية والوعى الحضارى ، فاللغة الغالبة كالحضارة الغالبة تفرض وجودها – كما يقول ابن خلدون – على غيرها ممن هم دونها .

والاعلام بفصائله المعدودة هو اللغة مقولة أو مكتوبة تصدر بها الصحيفة وينشر بها الكتاب وتبث فيها الرسالة ويفضى بها المعلم بمعارفه إلى تلاميذه ويخاطب بها الزعيم أعوانه وينادى بها المصلح من يدعوهم لفكره ، والداعية مريديه وأعوانه ، كما ينمق بها المعلن إعلانه . ويحيى بها الناس بعضهم بعضًا ، ويسرون بها إلى بعضهم البعض بما يجول فى خواطرهم ، ويتناقلون بها أخبارهم ، ويخطون بها رسائلهم وهى أغنية المغنى ونشيد المنشد وسانحة الشاعر والطائر المحلق على أجنحة الخيال . وبها يتكامل المجتمع ويتآلف وتثبت دعائمه وتتسع آفاق المعرفة لدى أفراده فهى عنوان التماسك القومى والثقافى والاجتماعى للأمة ووحدتها الفكرية .

واللغة هى دعامة الوعى القومى ، وباختلافها اختلفت الشعوب والقبائل فما زالت القبائل الأفريقية ومن قبل كانت قبائل الهنود الحمر تتكلم كل منها لغة خاصة

بها ، وحينما برزت الدولة القومية فى أوربا إلى الوجود فى أعقاب العصور الوسطى كانت اللغات المحلية قوامها حين اغتالت اللاتينية لغة الثقافة والعلم والدين فى العصور الوسطى ، وحين نزل القرآن كان بلغة قريش بعد أن غلبت ماعداها من لهجات فى الجزيرة العربية ، وحملها المناذرة إلى تخوم فارس والغساسنة إلى بقاع الشام . وبعد أن نزل بها القرآن حملها حيث انساحت بها دعوة الإسلام إلى بقاع استعربت وهجرت لغاتها القديمة فى مصر والشمال الأفريقى والأندلس ، وغدت أمة العرب أمة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وأصبحت العربية أداة فكر وحضارة لأمة متميزة بثقافتها ووحدتها الحضارية وإن افتقدت الوحدة السياسية ، ولولا القرآن ووحدة الثقافة العربية لغلبت اللهجات المحلية للشعوب العربية اللسان العربى وغدت الأمة العربية شعوبا متباينة لاصلة بينها ولا يربطها غير رباط الدين كما أصبحت الأمم الأوربية حين تحللت إلى قوميات عديدة .

فاللغة هى رباط الحضارة ووعاء الفكر تتميز بها أمة من الأمم وتبرز من خلالها ثقافتها ومأثوراتها وأصولها التاريخية ، وانحدار اللغة سمة على انحدار الحضارة حيث تغيض الكلمات ويجمد التعبير . وقد تتمرق لغة الأمة إلى لهجات أو لغات متباينة . وقد مرت اللغة العربية بهذا الدور من الجمود وقصور الكلمة وضحالة الفكر حين انتاب الدولة من الوهن مامزقها دويلات وإمارات متناحرة ، ولولا القرآن لأفلت شمس العروبة وغدت العربية رسمًا من رسوم الماضى ، وإنك لتنساح فى البلاد العربية فتسمع من اللهجات المحلية ما يعسر عليك فهمه أو إدراك لفظه ، بل إن الكلمات لتتباين حتى يغدو معناها مختلفا عنه فى بلد آخر ، فكلمة بسطة .. فى العراق تعنى الضرب بينما هى فى مصر تعنى السرور والابتهاج والكندرة هى الحذاء ، والزول هو الرجل فى السودان وهو الولد فى الجزيرة العربية والختيار فى العراق ، والمرأة هى السيدة وهى الهانم وهى الخاتون .

واللغة هى المقولة وهى المحرر الإعلامى وهى الحديث يدور بين الناس فيفهم بعضهم بعضا ، وهى العبارة المكتوبة أو المذاعة أو المدونة فى وثيقة أو المسجلة على شريط أو غير ذلك من أدوات التسجيل الحديثة ، وهى بذلك الأداة الأولى لكل فصائل الإعلام ، وهى الصلة بين المعرفة والعقل فحيث ينِدّ الفكر لابد له وأن يصدر فى كلمة أو عبارة يعيها الغير ويدرك معناها ومرماها القارئ أو المستمع .

واللغة موكب الحضارة الدافق تغذيها بكلمات جديدة لم يكن لها وجود من قبل وإنما جاءت إلى الحاضر وثبًا على كل جديد وكل كشف لم يعرفه الماضى ، فكل اختراع لابد له من مسمى وكل كشف لابد له من كلمة يتعارف الناس عليها ، « وهي أداة العصر للوفاق الاجتماعى والثقافى فى الأمة ، وهى وسيلتها التى تغزو بها آفاق العالم الفسيحة الرحبة لتحقيق ذاتها وكيانها الدولى فى مجتمع الأمم .

وكلما ذاعت لغة أمة كان ذلك سمة على تفوقها الحضارى والفكرى ، فحين ذاعت اللغة الفرنسية وعمت فى القرن التاسع عشر ، كانت فرنسا تتبوّأ حينذاك أعلى مكانة فى الفكر العالمى ، فأصبحت الفرنسية هى اللغة الثانية لكل أمة تنشد التحضر والفكر الرفيع ، وبالرغم من ذيوع اللغة الإنجليزية مع امتداد الإمبراطورية البريطانية وانسياحها فى الأرض لم تكن لها مكانة اللغة الفرنسية فى الفكر الرفيع والتمدن الحديث إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، حتى إذا أخذت اللغة الإنجليزية الأمريكية تغزو العالم مع الانسياح الأمريكى ، وغلبة الفكر الاقتصادى والسياسى على الفكر الإنسانى تقدمت اللغة الإنجليزية واحتلت المكانة الأولى ، يحتاجها كل غريب ليصل نفسه بالعالم وأحداثه .

وحين قامت الأمم المتحدة اتخذت من اللغات الذائعة والتى يتكلمها أكبر عدد من البشر لغاتها الرسمية وهى الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والصينية وقد أضيفت إليها اللغة العربية أخيرا بعد أن احتل العرب مكانتهم فى مجتمع الأمم .

وليست اللغة اختراعا فرديا أو كشفًا لمجهول لم يكن معروفا من قبل . وإنما هي وليدة القدرة التي أودعها الله في الإنسان وميزه بها على سائر خلقه ، وهي القدرة على إخراج الأصوات والتمييز بينها وهي مانسميه النطق ، حتى قيل إن الإنسان حيوان ناطق ميزه الله بالنطق على كافة مخلوقاته .

وليست القدرة على النطق هي وحدها التي أبدعت اللغة وإنما هي القدرة على إدراك المدلولات التي تعنيها كل كلمة من كلمات اللغة ، وهذه القدرة على إدراك المدلولات ليست تصورا فرديا وإنما هي تصور جماعي لكلمة تعبر عن واقع قائم ملموس وهو أول مراحلها ينتقل بعدها التصور لما يندّبه الخاطر من فكر هو أقرب إلى التجريد منه إلى الواقع المحسوس .

فاللغة اختراع جماعي ينم عن توافق عقل الجماعة ونشاطها المشترك ، فإذا استوت في حياة الجماعة على وفاق توارثها الجيل تقليدًا عن الجيل الذى سبقه فهي أول ما يتعلمه الأبناء من الآدباء ، فإذا جدّ مالم يكن معروفًا من قبل اختارت له الجماعة الكلمة التي تعنيه وتدل عليه . وتغدو اللغة من بعد ظاهرة اجتماعية تخضع لكل ما تخضع له الظواهر الاجتماعية من نمو وتطور ودراسة فلكل مجتمع لغته المعبرة عن ضميره وحاجاته وواقعه ، فتمايزت اللغات كما تمايزت المجتمعات ، وليست هناك لغة عامة مادامت الجماعات الإنسانية مبعثرة متمايزة في شتى أنحاء المعمورة ، فإذا أتيح للغة من اللغات أن تمتد وتنتشر فلأن الجماعة التي تتكلمها قد أصبح لها من الغلب والقدرة والتفوق الحضارى ما يجعل سلطانها غالبا على غيرها .

وقد تؤدى وحدة الحضارة المعاصرة إلى وحدة اللغة أو أن تكون هناك لغة عامة يتعارف عليها المجتمع الدولى بعد أن غدا المجتمع الدولى مجتمعًا إنسانيا تجمعه مصالح مشتركة وغدت حضارة العصر عامة ولم تعد إقليمية كالحضارات التي سبقتها .

فإذا كانت المعرفة هي قوام الحضارة فإن اللغة هي أداة المعرفة وهي خزانتها التي .

تصونها وتحفظها للمستقبل وتحميها من البلى الذى يعدو عليها فتنسى . فلولا الكتابات التى خلفها الفراعنة على أوراق البردى وأحجار المعابد لما عرف العالم شيئا عنهم ولولا أننا عرفنا رموز اللغة الهيروغليفية لما عرفنا هذا الماضى الحافل للتاريخ الفرعونى ولبقيت الآثار أحجارًا صماء لا تنطق .

لغة الإعلام :

واللغة هى أداة الإعلام بفصائله المختلفة ، فالإعلام – كما قلنا – هو اللغة مقولة أو مكتوبة . إلا أنها فى كل فصائل الإعلام وفى كل أنماطه تختلف فى الأداء ولا تختلف فى التعبير ، فالأداء فى الخطابة غيره فى الكتابة أو الحديث ، ولكن المدرك فى كليهما واحد إذا ما عرضا لموضوع واحد ، ونعنى بالتعبير فيما نذهب إليه هنا ، قدرة الكلمة على تصوير المضمون ونقله إلى الغير كما يريده الخطيب أو الكاتب أو المتحدث وإدراك الغير لهذا المضمون كما يتصوره الخطيب أو الكاتب أو المتحدث . فالأداء فى التعليم غيره فى الدعوة أو الدعاية وفى كل ضروب الإمتاع . بل إن الطرفة أو الملحة لا تبدو فى إطارها المنشود ما لم يتخير لها صاحبها الكلمة التى تناسبها .

ومن العبث أن نفترض للإعلام لغة متميزة ، فالإعلام بكل فصائله هو التعبير – كما قلنا – عن واقع قائم نعيشه أو نرنو إليه ، عن طريق قنوات متباينة يختلف الأداء اللغوى فى كل منها عن الآخر ، فهو فى الصحافة غيره فى الإذاعة صوتية أو مرئية ، بل إنه فى الإذاعة الصوتية يصدر فى صورة تختلف عما هى عليه فى الإذاعة المرئية . والأداء فى القصة غيره فى التاريخ وإن اقتربا من بعضهما فى السرد ، والأداء الأدبى غير الأداء العلمى ، ويعبّر المعلم عما يريد بأداء يختلف عن أداء الخطيب ، فإذا عمد إلى أسلوب الخطيب وأدائه عدّ معلمًا فاشلاً ، وقد يبدو

المحاضر كالمتحدث من حيث الأداء إلا أنهما يختلفان تمامًا لا من حيث الأداء اللغوى فحسب بل من حيث الإيماءات والإشارات المعبرة .

وليس فى الإعلام جديد إلا من حيث الأداء والوسيلة وقد تأثر كل منهما بالآخر فقد أدخلت وسائل الإعلام الحديثة كالإذاعة والسينما ووكالات الأنباء ألواناً جديدة من الأداء على التعبير اللغوى لم تكن مألوفة من قبل ، كما أصبحت فصائل الإعلام تخضع فى الأداء لتقنين علمى يستعين بالمعرفة الجديدة فى علوم الإنسان والاجتماع وعلم النفس والتربية والسلوكيات والدعاية وغير ذلك من مستحدثات المعرفة الإنسانية على تحقيق ما ينشده ، وقد أصبح هذا التقنين العلمى للأداء الإعلامى مجالاً لدراسات وبحوث عديدة كتحليل الدعاية إلى أنماط وأساليب ، ودراسة صور الكلام فى الأداء اللغوى ، والتحليل الكمى للأساليب الأدبية . ومدى تأثير الكلمة فى موقف معين ، وقياس المعرفة مع العمر الزمنى ، بحيث أصبح الأداء اللغوى دراسة علمية لا يستغنى عنها أى مشتغل بالإعلام ، معلّمًا أو كاتباً أو صحفياً أو مذيعاً أو ممثلاً أو داعياً أو معلناً . وأصبح على رجل الإعلام أن ينقل الأفكار والمشاعر والأحداث والاتجاهات فى صورة من الأداء اللغوى الفعال والمؤثر .

ويقوم الأداء اللغوى على إلمام واعٍ بأساليب التعبير وصياغة الكلمات بما يؤدى إلى المعنى المقصود مباشرة ، فإذا كان العمل الأدبى يحتاج إلى الإفاضة والمحسنات اللفظية ، فإن صياغة الخبر لا يحتاج إلى تلك المحسنات اللفظية بل يحتاج إلى أقل قدر من الكلمات التى تعبّر عن الواقع مباشرة ، لذلك تبدأ الأخبار الإذاعية بإذاعة ملخص الأخبار قبل أن تبدأ فى تفصيلها ، فإذا أخذت فى تفصيلها كان ذلك على قدر ما تقدمه من واقع الحدث دون تعليق قد يؤثر على الواقع ودون إسهاب قد يخل بالمضمون ، وإذا كان الأداء اللغوى فى الفن والأدب مما يعبّر عن

المشاعر والأخيلة فإنه فى الإعلام عامة يقوم على التعبير عن الواقع كما هو غير متأثر بالذاتية أو المشاعر الخاصة . وإن كان فى بعض فصائله مما يحتاج إلى الإقناع ويتطلب نوعاً من الذاتية فالمعلم حين يقدم نوعاً من المعرفة إلى تلاميذه ، فإنه يعتمد على طريقته الخاصة وأسلوبه الذاتى فى تحريك قدرة التلاميذ على الفهم والاستيعاب وأن يصل بهم إلى درجة من الاقتناع الذاتى بما يقدمه لهم من معارف ، ولا يمكن أن يتم التفاعل بين المعلم والتلميذ ما لم يكن المعلم قادراً على التدليل والإقناع .

وقد تبدو المسرحية مثيرة للإمتاع ، ولكنها فى الواقع تتضمن نوعاً من التأثير الذى تشيعه فكرة المسرحية فى المشاهد .

كما يبدو فى إيراد الخبر سواء عن طريق الصحافة أو الإذاعة نوع من التأثير الذى يقوم على الإقناع الضمنى الذى يتستر بالأداء اللغوى فيما يبغيه المخبر أو المذيع من هذا الأداء . فالخبر عن جريمة تقع يصحبه فى العادة نوع من الاستهجان للجريمة ، والخبر السياسى لابد وأن يتضمن نوعاً من التوجيه السياسى الذى يتفق وسياسة الدولة التى تصدر أجهزتها الإعلامية به .

إلا أن أقسى ما يعانيه الأداء اللغوى أن يغيم المعنى الدقيق للكلمة بين المتكلم والمستمع حين يعجم على كليهما إدراك الفروق الدقيقة للمترادفات اللغوية ويبدوان كما لو كانا يتكلمان لغتين مختلفتين وهو ما يظهر أحياناً فى ندوة أو نقاش عام فترى ردّ الفعل عند المستمع غير ما يريده المتكلم فالمستمع لا يدرك تماماً ما يعنيه المتكلم بألفاظه وكلماته فيعجم عليه اللفظ ويعيه بمعنى آخر مختلف تماماً عما يدور فى ذهن المتكلم ، ولا يعد هذا عيباً من عيوب الترادف بقدر ما يعد جهلاً بإدراك المعنى الدقيق للكلمة فى مترادفاتها العديدة .

وقد يبدو عجز الأداء اللغوى فى العربية ناجمًا عن القصور فى إدراك المعنى

الدقيق للكلمة فى اللغة التى ننقل عنها ، أو الاختلاف فى ترجمة المستحدثات اللغوية الجديدة فى اللغات التى أبدعتها تعبيراً عن مدرك جديد للإبداع العلمى أو الأدبى أو الفنى لحضارة العصر. فكم تعددت لدينا المصطلحات الفلسفية والسياسية والأدبية والعلمية للفكر الجديد عند ترجمتها إلى العربية . وهو ما غال مصطلحات الإعلام بدورها عند ترجمتها إلى العربية ، فحيث اصطلحنا على مصطلح «الإعلام» تعبيراً عن هذا العلم الجديد وكان من ابتكار شيخ الصحافة المصرية المغفور له الدكتور محمود عزمى – كما بينت من قبل – ذهب آخرون إلى الترجمة الحرفية للمصطلح الإنجليزى فقالوا «الاتصال الجماهيرى» مع سقم هذا المصطلح فى العربية مما أدى إلى التفاوت والخلل الذى شاب إدراك كل منهما على حدة . وحين ترجمنا عبارة Theory of Mass Communication «قلنا «نظريات الإعلام» أو «نظريات الاتصال الجماهيرى» ولم يدرك المترجم أن كلمة Theory كما تعنى كلمة «نظرية» فإنها تعنى أيضاً كلمة «الشرح» القائم على فكرة أو ملاحظة وبرهان ، وتعنى المنهج أو الأسلوب فى العلم أو الفن دون التطبيق ، كما تعنى الفكرة أو الخيال فى مقابل الواقع أو الممارسة ، وحين نختار لها الترجمة الدقيقة نقول : «الفكر الإعلامى» بدلاً من نظريات الإعلام ، فليس للإعلام نظرية – كما قلت – ولكن هناك نمط إعلامى يقوم على فكرة معينة ، فلا نقول النظرية الليبرالية أو الجماعية فى الإعلام وإنما نقول الفكر أو النمط الليبرالى فى الإعلام ، والفكر أو النمط الجماعى فى الإعلام . فإذا كان علينا أن نقول نظرية الحرية أو النظرية السوفيتية فى الإعلام ، فإن الأصح أن نقول «نظرة» بدلاً من نظرية ، وقد أفجعنى أن أرى رسالة جامعية تناقش بعنوان «النظرية الإنسانية وحرية الصحافة» ومنح صاحبها درجة الدكتوراه . وكان الأصح أن نقول «النظرة الإنسانية» فلا أعتقد ولم أقرأ فى أى مذهب من مذاهب الفلسفة أو التاريخ

أو العلوم الإنسانية أو حتى فى مصطلحات اللغة ما يسمى « النظرية الإنسانية » وإن عرف التاريخ ما يسمى بالحركة الإنسانية فى بداية عصر النهضة الأوربية .

فالأداء اللغوى إذا اختل أو غام فى ذهن صاحبه غام واختل فى ذهن المتلقى . أو المستمع .

ويختلف الأداء اللغوى باختلاف الفصيلة الإعلامية أو النمط الإعلامى أو وسيلة الإعلام ، فالأداء اللغوى فى التعليم غيره فى الدعوة أو الدعاية أو الإمتاع ، بل إنه فى التعليم وهو فصيلة تتوحى المعرفة فى واقعها ، يكون فى المعارف العلمية غيره فى المعارف الإنسانية ، وقد يبدو فى الدعوة أقرب ما يكون إلى التعليم ولكن الدعوة تحتاج إلى الأداء المؤثر إلى جانب الأداء المقنع ، أما الدعاية فإن الأداء اللغوى فيها يعتمد على الإثارة والاستهواء وإن اختفيا تحت ستار من القدرة على الإقناع ، حتى أصبحت سيكلوجية الدعاية تقوم على نبذ كلمة الدعاية متسترة وراء كلمة الإعلام بما فيها من شمول وتعميم ولأنها توحى إلى المستمع سمة الحقيقة .

فإذا خضع الإعلام لنمط من أنماط الفكر أو مذهب من السياسة والحكم كالنمط الليبرالى أو الجماعى أو النعرة القومية كما هو فى العالم الثالث فإنه يصبح أسير الاتجاهات التى تحكم هذا النمط فكرية أو سياسية ، ولعل أبرز مثل للإعلام الموجه كان المثل الذى صاغه جوبلز للدعاية النازية فى فترة ما بين الحربين ، إلا أن أخطر ما فيه أنه يقيد حرية الإعلام بإرادة السلطة سواء كانت هذه السلطة جماعية كما هى فى الاتحاد السوفيتى وكما كانت فى ألمانيا النازية أو فى أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين ساد حكم الطاغية أو الملك المستبد قبل شيوع الأنظمة الدستورية التى أطاحت بالحكومات الملكية كما حدث فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية وفى أمريكا بعد حرب الاستقلال وفى إنجلترا بعد استقرار النظام البرلمانى .

ومن قبيل الإعلام الموجه ما يسود بعض الدول النامية فى الوقت الحاضر ،

وهى الدول التى تحررت من الاستعمار ولكن سادتها نزعة قومية حادّة وحيرة سياسية اختلط فيها الفكر الرأسمالى بالفكر الاشتراكي ونزعة إلى التسلط كما حدث فى بعض البلدان العربية والأفريقية والآسيوية ، ففى هذا الطراز من الدول النامية يخضع الإعلام للسلطة الحاكمة سواء كانت سلطة فرد أو جماعة عسكرية أو حزب كحزب البعث وصل إلى السلطة بالسيطرة على الجيش ، وإن كان بعض هذه الدول النامية ما زال يخضع لنوع من السلطة الأبوية وإن كان فى طريقه إلى الزوال كما حدث فى أثيوبيا وفى إيران إلاّ أنه كان يسيطر على أجهزة الإعلام سيطرة تامة ويوجهها وفق إرادته ، وإن بقيت هذه السيطرة وهذا التوجيه فى ظل الأنظمة التى خلفتها مما يدل على الحيرة الفكرية والتهويم السياسى ، وتطلعات الطبقات الجديدة النامية .

ويخضع الأداء اللغوى فى مثل هذه الأنظمة السياسية لما يسمى بالنمط الإعلامى ، فهو فى نمطه الليبرالى غيره فى نمطه الجماعى ، وغيره فى البلدان النامية وهو ما يمكن أن نطلق عليه « النمط الوسيط » فلا هو ليبرالى خالص ولا هو جماعى ملتزم ، ففى مثل هذه الأنماط يغدو الأداء اللغوى مركباً ذلولاً للنمط الذى يحتذيه ، وإن جهد فى أن يقنع السامع بحقيقة مضمونه . وهو ما ترمى إليه كافة أنماط الإعلام فى تأثيرها على الرأى العام كما يرى - والتر ليبمان - فى حديثه عنه ، إذ يرى أن الإنسان قاصر فى إدراكه ، فهو لا يعى محيطه أو عالمه برؤيته الذاتية له أو ملاحظته ، وما دام هذا المحيط أو العالم مما يقع خارج المدركات الحسية بعيدًا عن أبصارنا فتعجم عقولنا عن إدراكه ، فإننا فى حاجة إلى الوعى الناضج والمعرفة الواقعية بالمسائل العامة ، وحيث تستوى هذه المعرفة العامة على وفاق فى عقول الناس ينشأ الرأى العام ، وهو ما تسعى إليه وسائل الإعلام بكل أنماطها واتجاهاتها وبقدرتها على التعبير المقنع عما ترمى إليه وتحب أن تؤكده لدى الناس ، بكافة الوسائل والأسانيد .

وقد يبدو الأداء اللغوى فى نمط من الأنماط الإعلامية قاصراً عن الوفاء بغايته التى تنشدها الجهة الغالبة عليه أو النظام السائد ، فتستعين هذه الجهة الغالبة أو النظام السائد بتكوين صور ذهنية لدى الناس كثيراً ما تكون بعيدة عن الواقع الموضوعى عن طريق الرقابة على مواد الإعلام ، والعوائق التى تفرضها عليه فتحول دون معرفة الحقيقة ، فضلاً عما يعانيه فى مثل هذا النظام من قهر ينأى بهم عن الاهتمام بما يجرى ، فتسود الأوهام وتفرخ الإشاعات وتتشوش الأفكار ويتمزق الرأى العام وتغلب المنفعة ، ويصبح لسيف المعز وذهبه السلطان القاهر. ويغدو الأداء اللغوى تعبيراً عن الخوف والطمع ، ومع التكرار ومرور الزمن تتكون أخيلة وتصورات بعيدة عن الواقع ولكنها تتحكم فى سلوك الناس واتجاهاتهم العقلية والعاطفية .

ولهذا غدا الأداء اللغوى فى الإعلام بكافة فصائله وهو يخضع لدراسة علمية وتقنين لغوى تكون الكلمة فيه أداة طيعة لنمط الإعلام السائد .

الإعلام والرأى العام

نشأة الرأى العام :

لا نغالى إذا قلنا إن نشأة الرأى العام وتطوره كان هو الأساس فى ثورة الإعلام الحديث ، وهى ثورة تطبع العالم المعاصر بطابعها الغلاّب المؤثر.

ولكن أيهما سبق الآخر ، أهو الرأى العام أم الإعلام ، أم أنهما بدءا معًا وأثر كل منهما فى الآخر ، فكان الفعل ورد الفعل بقدر ما كان أثر وتأثير كل منهما فى الآخر ؟

فإذا قلنا إن الإعلام قديم قدم الجماعة الإنسانية وأنه نشأ معها وصاحبها فى نموها وتطورها ، فإن الإعلام فى بعض مراميه كان يرنو إلى تكوين رأى عام حول شىء ما يعنى السلطة القائمة ويهمها ، سواء كانت سلطة الكاهن أو الساحر فى الجماعة البدائية الأولى أو شيخ القبيلة أو الملك فى الدولة . فالكاهن أو الساحر لا يملك

أيهما سلطة الإرغام ما لم يكن الإرغام قائماً على اقتناع ، فسلطان الكاهن لا يعلو إلاّ فى جماعة تؤمن بالعقيدة التى يمثلها الكاهن ويتصدرها ويقوم على رعايتها ويضطلع برسومها ومراسمها ، وساحر القبيلة لابدّ وأن يكون ذا موهبة خارقة على الإقناع ، فإذا كان الرجل البدائى يؤمن بسلطانه على الرياح والعواصف والمطر ، فإن الرجل المعاصر لا يتقبل هذه التعلاّت ، التى يؤمن بها البدائى إن لم ينظر إليها بنوع من السخرية ، ولعل الساحر قد أوتى ذكاء يفوق ذكاء الآخرين ، ويستطيع أن يدرك من علامات الرياح والعواصف والأمطار ما يسبق بها غيره فى التنبؤ بها ، فإذا آمن البدائى بقدرته تلك سهل عليه أن يؤمن بقدرته على تذليل ما هو عسير على البدائى من علاقات الزواج والحب والعسر واليسر وشفاء الأمراض مما لا يزال قائماً حتى اليوم فى كثير من الجماعات المتقدمة .

وقد يكون للملك أو الحاكم من سلطة الإرغام ما يحمل رعاياه على الخضوع والإذعان ، إلاّ أن سلطان القهر والإرغام لا يكفى وحده لتحقيق الامتثال ، ولابدّ له من أن يشيع بين الناس تميزاً ينفرد به وحده دون الآخرين ، فهو الملك المؤلّة سليل الآلهة فى مصر القديمة ، يؤمن الناس بعلوّه وتميزه وقداسته فيخافونه ، وهو خوف يبرره الخيال بالرضا ، وكثيراً ما يتحول الرضا إلى نوع من الحب الشعورى وإن طوى نوعًا من الخوف والرهبة اللاشعوريين .

ومثل هذه الخرافات التى حفل بها التاريخ القديم وأضفى عليها الخيال صوراً عديدة من الإذعان هى ولا ريب وليدة فصيلة من فصائل الإعلام نراها فى شيوع هذه العقائد الخرافية بين الناس ، عن طريق الامتصاص الاجتماعى فى سن التنشئة والتعلم فى سن البلوغ ثم الدعوة والدعاية لها والتى تحمل الناس على توفيرها والإذعان لها . فالناس – كما يرى برتراند رسل – يخترعون الخرافات التى تبرر لهم مخاوفهم التبرير العقلى الذى يريحهم ، وللخيال قوى قاهرة يحمل الناس – كما يرى

شكسبير – على الإيمان بحقيقته « فإذا أحس الإنسان فى الليل خوفًا ، فإنه يرى فى الشجيرة دبا » .

ومهما يكن من إرهاص بوجود رأى عام لدى الإنسان البدائى وأن هذا الرأى العام ماثل فى الإجماع على تلك الخرافات ، وأن هذا الإجماع وليد نوع من الإعلام البدائى فإن الرأى العام فى حاضره شىء آخر .

ولكن علينا أن نتوخى الحذر فى تحديد تلك المصطلحات الجديدة التى أفرزتها حضارة العصر ، وثقافته ، وإن كانت لها جذورها القديمة ، كالوطنية والقومية والجماعية والفردية ومن بينها الإعلام والرأى العام فحيث تتحدد أمامنا المصطلحات العلمية نجد مصطلحات العلوم الإنسانية هلامية غير محددة ، يدركها كل إنسان وفقاً لردود أفعالها عنده . فكلمات العدالة والنظام والحرية والشخصية والتحضر والفائدة الحدية وغير ذلك مما يدور على ألسنة علماء الإنسانيات والعلوم الاجتماعية فى كثير من الثقة ولكنها ثقة تعوزها الدقة كما هى فى المصطلح أو الكلمة العلمية ، فالعالم يعرف دلالة الماء والبخار والقوى المحركة ، فى الوقت الذى لا يستطيع عالم السياسة أن يحدد المعنى الدقيق لعبارة « الصوت المستقل – كما يقول « برنارد هينيسى » فى كتابه الرأى العام – الصادر عام ١٩٧٥ .

ويتباين لذلك تعريف الرأى العام بتباين الكتّاب الذين كتبوا عنه ، إلاّ أننا نجد أن مكيا ڤللى كان أول من ذكر عبارة « الرأى العام » بمعناها الجديد فنراه يقول فى كتابه « الأحاديث » « لا يستطيع إنسان واع أن يغفل الرأى العام فى مسائل معينة كتوزيع الوظائف وإجراء الترقيات » ولكنه لم يعرض لتعريف الرأى العام ، حتى جاء « روسو » فوضع تحليلاً وافياً لمقومات الرأى العام ، فلم يكتف بالحديث عن علاقة الفرد بسياسة الحكومة ، وفكرته عنها ، ولكنه أبرز الفكرة الحديثة للرأى العام بالنسبة للكافة والتمثيل النيابى ، وأنه ظاهرة اجتماعية أكثر منها ظاهرة طبيعية

وأن الحكومة لا تعيش بالقانون أو القهر وإنما تبقى برضاء الناس عنها فلا تستطيع أن تغفل التغير الاجتماعى الذى يرضى عنه الرأى العام .

إلا أن تحليل روسو للرأى العام كان فجًّا فى رأى «هانس سباير» فيقول : «وحتى روسو الذى وضع الرأى العام فى مضماره الحديث ، حين أكد أن القانون يجب أن يكون وليد الإرادة العامة ، فإنه تناول الرأى العام فى أصوله القديمة وقبل أن تتضح مسيرة الديمقراطية» .

وقد ظل الرأى العام كظاهرة اجتماعية وسياسية ملك السلطة قبل أن تسفر الثورة الفكرية عن اتجاهاتها فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن ثمة تأثير للرأى العام على مجريات السياسة ، ولم تعن آراء «لوك» و«روسو» و«كوندرسيه» و«جيفرسون» وغيرهم من مفكرى القرن الثامن عشر عن فكرة المساواة ورأى الأغلبية شيئاً بالنسبة للفكر العام ، حتى انتعشت فكرة الفردية والمساواة السياسية مع التغيرات الاقتصادية والتقدم الصناعى فى أواخر القرن الثامن عشر فأصبح من لم يكن لهم صوت فى سياسة الحكومة هم أصحاب الصوت الأعلى ، وغدا كل ما يدور فى أفكار عامة الناس وله تأثيره البالغ ، وما وافى القرن التاسع عشر حتى شاعت عبارة الرأى العام على ألسنة المثقفين . وإن لم تكن قوة الرأى العام الجديد موضع رضائهم جميعاً ، فنرى «سير روبرت بيل» يكتب إلى صديق عام ١٨٢٠ منكراً «الترهات ، والضعف ، والمشاعر السيئة والطيبة ، والعناد ، ومقولات الصحف ، المسماة بالرأى العام» كما نرى «دى توكفيل» صاحب الكتاب الخالد «ديمقراطية أمريكا» يلقى بأوضار الغثاثة والفجاجة والتقلب فى الرأى على كاهل الأغلبية القادرة المستبدة ، وهى الأغلبية التى تكون الرأى العام .

وعند نهاية القرن التاسع عشر أدرك كثير من الساسة والمفكرين وأصحاب الحكم أهمية الرأى العام ، إلاّ أن الاهتمام بدراسته ومعرفته لم يبدأ إلاّ مع الحرب

العالمية الأولى حين بدت حاجة المتحاربين إلى الدعاية واستهواء الرأى العام ، وكان كتاب « لورنس لوول » الرأى العام والحكومة الأثيرة ، عام ١٩١٣ أول دراسة من نوعها عن الرأى العام ، حتى كتب « ولتر ليبمان » كتابه « الرأى العام » عام ١٩٢٢ ، بعد أن عرف العالم ما كان لاتجاهات الرأى العام من أثر على مسيرة الحرب ، ثم توالت البحوث خلال العشرينيات والثلاثينيات وهى تخوض فى تحليله وردّه إلى أصوله النفسية والاجتماعية ومؤثراته الطارئة وتفترض النظريات وما ينجم عنه من اتجاهات عملية فى الحكم والسياسة ، فسبق اهتمام الساسة به ، اهتمام الدارسين والكتّاب ، وإن أصبح اليوم موضوعاً لدراسات وإحصائيات وبيانات جامعة فى كافة الجامعات وفى كليات الإعلام والعلوم السياسية والاجتماع ومعاهد التدريب الإعلامى .

ومع ذلك فما زال تعريف الرأى العام متبايناً لا يستقر فيه كتّابه ودارسوه على تعريف واحد ، ولعل آخر تعريف له هو تعريف « برنارد هينيسى » وهو « إن الرأى العام رأى بين آراء عديدة حول موضوع عام له أهميته تعبّر عنه جماعة متميزة من الأفراد » وهو رأى يراه بعيداً عما هوسائد من طباع وعادات وتقاليد اجتماعية ، كما هو بعيد عما يشغل الناس من اهتمامات خاصة لا تعنى المجموع ، وإن رأى « جون ديوى » فى كتابه « الجماعة ومشكلاتها » أن المجتمع يضم جماعات عديدة يؤلف بين أفراد كل جماعة منها اهتمام عام تجذبهم إليه مؤثرات واحدة تكوّن ما نسميه بالرأى العام ، وإن تفرقوا فى غيره ، كالجماعات الدينية وجماعات البريدج مثلاً أو هواة الكرة أو المسرح ، وهو ما نراه فى انقسام هواة كرة القدم حول الحماس لفريق دون الآخر ، فهناك جماعة المتحمسين لنادى الزمالك وجماعة المتحمسين للنادى الأهلى . وإن كان مثل هذا الحماس لا يبرز إلا فى أوقات معينة ، ولكنه يعبر عن رأى عام لفريق من الناس فى ساعة ووقت معينين ، ويبقى كامناً فى غير هذا الوقت وفى غير

تلك المناسبة .

ومهما يكن ، فإننا نستطيع أن نقول إن الرأى العام كالإعلام قديم قدم الجماعة الإنسانية المنظمة ، وأن كليهما قد نشأ مع نشأة الجماعة السياسية إلاّ أنه كالإعلام برز وتطور منذ أخذ الانقلاب الصناعى يسفر عن آثاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيما نسميه بالثورة الصناعية ، وإن الإعلام قد أصبح هو الأداة المهيمنة على الرأى العام .

وقد بدت أهمية الرأى العام وتقديره لدى السلطة حين بدا تأثيره فى سياسة الحكم وفى اتخاذ القرار ، فكل ما لا يرضى عنه المجموع يكون موضع سخطه ويرمه وقد يؤدى هذا السخط إلى نوع من الاحتجاج والثورة ضد القرار .

إلا أن تقدير الرأى العام والاهتمام باتجاهاته لم يكن وليد الثورة الصناعية ، وما كان لها من أثر فى التغير الكبير الذى حل بالمجتمع ، هذا التغير الذى قفز بالقرية إلى المدينة وبالحرفة إلى المصنع الكبير وبالتجمعات الزراعية الواهنة إلى الحشود الصناعية المتآلفة ، وبرأس المال التجارى إلى الرأسمالية الصناعية وبطلب التوابل إلى طلب الخامات والبحث عن أسواق التجارة وتوزيع السلع الجديدة . إذ أن هذا التغير لم يكن ليستطيع أن يلد شيئاً لولا الفكر الجديد الذى أخذ يعصف بعقول الناس واتجاهاتهم وسلوكهم ، وقد يبدو أن اللاعب الأوّل على مسرح الفكر الجديد كان جماعة الفلاسفة والمفكرين ، وهو خطأ كثيراً ما نتردى فيه ، فليس الفيلسوف أو المفكر إلا ناطقاً بروح عصره وإن بدا أكثر استلهاماً لروح العصر من غيره ، ومن هنا تبدو جدة فكره ، فإن كان إرهاصاً بالمستقبل ، فإن هذا المستقبل ما برح جنينا فى ضمير الغيب ، ولكن هذا الجنين هو نطفة قذف بها المجتمع ذاته تتشكل على مهل حتى تكتمل جنينًا فيه كل مقومات الحياة ، فلولا الحشود العمالية فى المصنع والاستغلال البشع للرأسمالى الجشع ما تلقى العمال تعاليم « روبرت أوين »

وأضرابه من رواد الاشتراكية ، ولولا نظام المصنع وعامل الربح والأجور الحدية للعمال والربح والخسارة ما صاغ ماركس نظريته فى فائض القيمة وما استطاع أن يضع قوانين الاشتراكية العلمية ، ولولا الجوع الذى عصف بالفرنسيين ما استطاعت ترهات المحامين وأقاويل الخطباء أن تدفع الناس للثورة .

إذ أن منطق الواقع القائم – كما يقول ويلز – ينتصر دائما على كل فكر نظرى . إلا أن هذا الواقع لابد وأن يلهم شيئا ما يبدو فى صورة رأى عام تجتمع عليه الكثرة وتقوده القلة ، وهى قلة تعلو مواهبها على مواهب العامة ، وهى قلة إما محافظة تتعلق بأذيال الماضى وإما مجددة تنظر إلى الحاضر من خلال المستقبل ويقدر مايكون لإحداهما من القوة المادية بقدر ما يكون لها من القدرة على صياغة السياسة العامة واتخاذ القرار .

ففى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ اجتمع سادة النظام القديم يقررون مستقبل أوربا بعد الثورة الفرنسية التى زلزلت أركانه إثر الحروب النابليونية الظافرة التى حملت مبادئ الثورة إليها وهوت بالتيجان القديمة لتضع بذرة النظام الجديد ، وقد استطاع سادة النظام القديم أن يعوقوا بذرة النظام الجديد عن النمو لجيل قادم ولكنهم عجزوا عن وأده ، وهو ماعبر عنه نابليون فى منفاه حين كتب يبرر مغامراته العسكرية لتبقى صورته ، صورة نابليون العظيم . باقية على الزمن ، فيقول إنه ابن الثورة الفرنسية وهى التى رفعته إلى السلطة بإرادة المجموع ، وأنه حارب دائما انتصارًا للحرية والسلام ، وما كانت ديكتاتوريته إلا لتحرير الحكم من الفوضى وقد أعاد النظام وطهر الثورة ورفع أعلام المجد لفرنسا ، وما كان فى وقت ما معتديًا ولكن أعداءه وأعداء الثورة هم الذين اضطروه للحرب ، كما يقول : « إن مجدى ليس فى أننى كسبت مائة معركة أو تزيد وإنما صفحة مجدى الحقيقية هى القانون المدنى الفرنسى وما لبثت فرنسا أن استعادت صورة بطلها القديم .كما صورها لتضعه على قمة

الخالدين من أبنائها .

وقد لانرى فى موقف أقطاب مؤتمر فينا ما يكون رأيًا عامًّا بالرغم من أنه يمثل اهتمامًا معينًا لجماعة من الناس وسط الجماعة العامة إلا أن هذه الجماعة تملك السلطة وهى فى موقفها تعبر عن مصالحها ، ولا نستطيع أن نرى فارقًا بينها وبين جماعة البريدج أو الجماعة الدينية فى أن كلا منها يدين برأى معين يمثل اهتماماتها أو مصالحها . فالرأى العام كما نرى غير ذلك فليس هو اهتماما خاصًّا لجماعة من الناس ، وإنما هو اهتمام عام ينبع من المجموع وإن اختلف عليه المجموع اختلافًا يؤدى إلى مواقف متباينة ، فإذا انحازت الأغلبية لموقف منها كان هو الموقف الغالب الذى يمثل رأى الأغلبية وهم المجموع الذى غلب رأيه رأى الآخرين .

فإذا كان مؤتمر فيينا يمثل اتجاهًا معينا فى السياسة الدولية فإن هذا الاتجاه كان مما ينكره الرأى العام السائد ، هذا الرأى العام الذى كان ثمرة الثورة الصناعية التى هزت كل قواعد المجتمع ومازالت تدك كل مابقى من معالمه القديمة ، فظهور الطبقة الوسطى ونشأة المدن الكبيرة كان وليد الرأسمالية التجارية التى سبقت الانقلاب الصناعى والتى أدّت إليها الكشوف الجغرافية أوكانت الكشوف الجغرافية ثمرة من ثمارها بعد أن ازداد حجم التجارة الدولية وبدت الحاجة إلى أسواق أوسع ومواصلات أيسر . وبظهور الطبقة الوسطى والمدن الكبيرة تقوض بناء اجتماعى ظل سائدا طوال العصور الوسطى ولاح فجر جديد لعصر جديد فلما كان الانقلاب الصناعى وحررت الآلة الإنسان من القنية والأمية بدت تباشير الثورة الصناعية بظهور الرأسمالية الصناعية ونظام المصنع وطبقة جديدة ستغدو على الزمن ولها الكلمة العليا فى النظام الجديد حرا هو أو جماعيا هى الطبقة العمالية وإلى جانبها جماعة المثقفين من الأساتذة والطلاب والكتاب والمفكرين ودعاة الإصلاح . وهذه الطبقة الجديدة هى التى تصدت لقرارات مؤتمر فينا وقاومتها وفيها تمثل الرأى العام

بأجلى معانيه ، ولم يكن هذا الرأى العام وليد ساعته أورد فعل لقرارات مؤتمر فيينا ، بل على العكس كانت قرارات مؤتمر فيينا رد فعل لهذا الاتجاه الجديد للرأى العام ، أخذ مفكرو القرن الثامن عشر يعبرون عنه بعد أن اكتشفوا زيف القداسة التى صانت الماضى ورفعته فى أعين الناس ، وقد زودهم العلم الجديد والمخترعات الجديدة بالمنطق الغلاب لتقويض معالمه ، فحين يرى الناس فى الجديد ما يثير ريبتهم أو حذرهم يكون لبعض المفكرين من بعد الرؤيا والنظرة إلى المستقبل مايكشف للناس ماغاب عنهم ، فالمفكر بطبيعته أبعد استشفافًا للواقع من غيره ، ومن خلال النظرة العميقة للواقعيتبين صورة المستقبل كما يجب أن تكون فلا تتناقض مع التغيير الذى تؤدى إليه طبيعة التطور وهو ما نعنيه حين نقول : إن المفكر هو الناطق الحق بضمير عصره .

فإذا كانت القلة المحافظة من الساسة وأصحاب المصالح قد تسودت مؤتمر فيينا وصاغت قراراته على هواها ، فإن القلة المجددة كانت قد وضعت بذرة التعبير ، وما من سبيل لاجتثاثها أو وقف نموها . ولم تكن تلك القلة المجددة من المفكرين والكتاب بعيدة عن التغير الجديد الذى يوشك أن يقوض أركان الماضى ويقضى على آخر معالمه الباقية من الاستبداد والتسلط ، فقد ظل « فولتير » على مدى حياته الطويلة (١٦٩٤ – ١٧٧٨) طوال القرن الثامن عشر وهو يبشر بالتقدم وسيادة العقل وأخذ « دنيس ديدرو » وجماعة الموسوعيين يحشدون المعارف العلمية الجديدة أمام الناس يبيثون أفكارهم للتقدم والإصلاح فحملوا عل التعصب الدينى تجارة الرقيق ، والضرائب الجائرة والقوانين الظالمة القاسية التى تسود النظام القديم واتجه « روسو » (١٧١٢ – ١٧٧٨) إلى محاربة الاستبداد والحكم الجائر وجاء كتابه « العقد الاجتماعى » بشيرا بالديمقراطية المنشودة ، « فإذا كان من حق الملك أن يحكم – كما يقول – فليس من حقه أن يصدر القوانين ، فهى من حق الناس وهم

الذين يضعونها ، حتى يتسنى لهم طاعتها فالقانون هو مثال الإرادة العامة » ، وكا روسو هو المبشر بشعارات الثورة الفرنسية : الحرية – الإخاء – المساواة – ويعد الكثيرون « أب الديمقراطية الحديثة » .

فإذا كان البرم بقرارات مؤتمر فيينا هو رد الفعل الطبيعي لاتجاه الرأى العا الجديد ، فإن رد الفعل الطبيعي للرأى العام أيضا هو التصدى للقرارات ومقاومتها . وهذا الرأى العام – كما قلنا – وليد النظام الجديد للانقلاب الصناعي والآثار الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة الصناعية وقد بذره وروا رواد الفكر الجديد . ولم يعد هنالك مايقف دونه أو من يرده عن غايته فلم يشرف القرن التاسع عشر على منتصفه حتى كانت الثورات تلهب النظام القديم بشواظ من سعير فى كل أنحاء أوربا وبدا الرأى العام مثال الارادة العامة فى تمام نضجه واكتماله .

وكانت تلك هى الفترة التى ولد فيها الرأى العام الحديث ظئرًا للإعلام الحديث وكانا معًا سمة على مولد عالم جديد هو الذى نعيشه ومازال يكشف كل يوم عن غرائبه .

وأصبح الإعلام من بعد صورة للرأى العام والتأثير فى الرأى العام وخداع الرأى العام وتصويب الرأى العام بجمع النقائض إليه كما تنمّ النفس البشرية عن كل نقائضها فحيث يبدو الإعلام حرا من كل قيد يغدو مثالا للرأى العام ، وحيث يرسف فى قيود السلطة أو قيود الجماعة يغدو مثالا لرأى السلطة أو رأى الجماعة ضد المجموع أو للتأثير على المجموع وخداعه أو تضليله لتحقيق منفعة السلطة أو الجماعة .

فالرأى العام هو الفكرة التى يدين بها المجموع تجاه موقف من المواقف الطارئة أو الممتدة ، وحيث يتوافق رأى أفراد المجموع أو جلهم تجاه هذا الموقف فى حرية كاملة .

وغالبا ما يكون هذا الرأى حصيلة نوع من الحوار حول العناصر التى يختلف عليها الأفراد فى الرأى فإذا استقر بهم الحوار على رأى تراه الأغلبية كان على الأقلية أن تذعن له وهذا هو جوهر الديمقراطية ، لذلك يكون الحوار ميدانًا للحجة ونقيضها حتى يسفر عن الحجة القاطعة التى يرى الأفراد أنها تحقق مصلحة الأفراد كمجموع متكامل .

فالديمقراطية تقوم على الرأى والرأى الآخر فتتعدد الأحزاب السياسية تبعًا لتعدد الآراء لدى جماعات المجموع العام ، وليس للحزب الواحد فى الكيان السياسى أن يحمل لواء الديمقراطية أو يدعيها ، حيث يخضع المجموع لإرادة واحدة يختفى فيها الرأى والرأى الآخر فكثيرًا ما يسفر هذا الرأى الواحد عن ارادة واحدة للتضليل والخداع وإخفاء الحقائق وتغدو وسائل الإعلام أداة طيعة للإرادة الواحدة . ويصبح الرأى العام هدفا للدعاية والاستهواء .

وإذا كان مؤتمر فيينا هو رد الفعل الطبيعى لاتجاهات الرأى العام الجديد الذى بدأ يكتسح القارة الأوربية بامتداد الثورة الفرنسية إليها فإنه كان قبل أى شىء آخر صراعًا بين نظامين وبين اتجاهين ، فإذا كان النظام القديم قد استطاع أن يفرض إرادته فإنه قد عجز تماما أن يخمد تلك الثورة الجانحة التى تكتسح الرأى العام ، حتى انفجرت فى فرنسا ضد أسرة البوربون التى عادت إلى العرش بعد مؤتمر فيينا فأعلنت الجمهورية الثانية فى فبراير ١٨٤٨ وعلى رأسها لويس بونابرت وقد انتخب بأغلبية كاسحة كانت مؤشرا لاتجاه الرأى العام الفرنسى . فقد بقى الفرنسيون يذكرون مآسى الجمهورية الأولى وكيف حررهم نابليون بونابرت منها وأعاد الاستقرار إلى فرنسا ولم يكن عسيرًا على لويس بونابرت وقد أدرك اتجاه الرأى العام . أن يستقطبه إلى جانبه وأن يعلن قيام الإمبراطورية الثانية « بعون الله وإرادة الناس » وأن يدعى نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين ووئدت الجمهورية الثانية بعد

أربع سنوات من قيامها وكان له من الصحافة الموالية التى سخرها لمأربه أعظم العون فى توجيه الرأى العام الفرنسى لما يبتغيه .

وما لبثت الثورات أن اجتاحت بوهيميا والمجر وامتدت إلى إيطاليا وألمانيا تطالب بالدستور والحريات العامة والوحدة القومية ولكنها باءت جميعا بالفشل أمام صولة النظام القديم ، إلا أن الديمقراطية والنزعة القومية بقيتا تلهبان الرأي العام وتهددان النظام القديم بالزوال حتى حققتا أعظم انتصاراتهما فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بإعلان حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وباتساع النظرة الديمقراطية لتشمل حياة الإنسان وخيره وراحته فتتخطى بذلك إطارها السياسى إلى الإطارين السياسى والاجتماعى معًا . وكان اتساع الرأى العام هو القوة المحركة التى صاغت الاتجاه الجديد . فإذا كانت القوى الاجتماعية الجديدة التى أفرزتها الثورة الصناعية هى التى صاغت هذا الاتجاه الجديد ، فإن هذا الاتجاه الجديد ما كان يستطيع أن يحقق غايته مالم يتشيع له أفراد المجموع ويسيطر على اتجاهاتهم وهو مايفسر لنا فشل ثورات ١٨٤٨ ، حين عجز زعماؤها عن تحريك الرأى العام لصالحها وحين أعوزتهم الخبرة والواقعية فكانوا أكثر كلامًا وأقل عملا ، وحين انقسمت القوميات الناشئة على نفسها ولم يجمع بينها اتجاه واحد ، وحين اختلف الرأى بين أفراد الطبقة الجديدة من العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وفرقت بينهم المصالح .

وحين اجتمع الرأى العام على وفاق نحو الديمقراطية والقومية عجزت كل قوى القمع عن قهره . بل أصبح منشد القوى الغالبة لاستهوائه والفوز بثقته تستند إليه الديمقراطيات وتعمل على خداعه واستهوائه وتعمل القوى الطاغية على تمزيقه حتى لا يكون بينه وبينها صدام مؤثر قد يعصف بها .

مقومات الرأى العام :

وحتى يتسنى لنا أن نلم بحقيقة الرأى العام ومضمونه وأن ندرك ما أصبح عليه من قوة فى عالمنا المعاصر فأصبح موضوعًا للدراسة العلمية المقننة وأن نعرف كيف انتقل من إطاره المحلى أو القومى الضيق إلى إطاره العالمى الفسيح ، فإن علينا أن نتناول المقومات التى يستند عليها الرأى العام وتعمل على تكوينه وتوجيهه .

وقد كان للبيئة أثرها فى تكوين الرأى العام وقد ردّه ابن خلدون إلى طبيعة الاجتماع عند البشر ولكنه يشير إلى طبيعة الاستهواء لدى البشر ، وهو بعض مايؤثر فى الرأى العام فيقول : « ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله .

إلاّ أن التشيع لخبر من الأخبار لايكون مالم يكن الخبر سندًا لما يراه الفرد أو الجماعة ، فهو لا حق على الرأى العام ونتيجة له . ولايكون الاعتدال فى قبول الخبر إلا وليد الموضوعية التى تحكم الميل أو الهوى ، وقد يكون وليد المجانفة أو عدم التوافق مع مايدور فى ذهن الفرد أو الجماعة وقد يسبق التشيع نوع من الاستهواء ، إلا أن الاستهواء لا يكتمل ولا يتم مالم يتوافق مع موقف الأفراد وحاجاتهم فحيث تسود النزعة القومية كما سادت أوربا بعد الحروب النابليونية يتشيع الناس لها بعد أن تستهويهم نزعة الاستقلال القومى والتحرر من أى سلطان أجنبى ، وحيث يتشيع

الناس للديمقراطية فإن حكومة تحكم بالشعب ولصالح الشعب لا لصالح طبقة أو جماعة هى التى تستهويهم وهى التى تحكم الرأى العام .

فإذا كانت البيئة تلعب دورها فى إبراز الرأى العام وشيوعه فإن الثقافة العامة والمأثورات السائدة هى التى تلعب الدور الأول فى تكوين الرأى العام يصوغها التعليم ويشكلها لتأخذ طابع العصر ومقوماته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وقد يكون لأحد هذه المقومات الغلبة على غيره فيستحوذ وحده على اتجاه الأفراد ويغدو قوامًا للرأى العام السائد ، ففى ثورة ١٩١٩ فى مصر كان الاتجاه القومى هو الغالب ، فاجتمع المصريون بكافة طبقاتهم وتحلهم على طلب الاستقلال والتحرر من النفوذ البريطانى فلما تحقق لهم نوع من الاستقلال الذاتى تشيع الرأى العام للديمقراطية والحكم الديمقراطى وكان الخلاف حول أسلوب الحكم ، إلا أن هذا الخلاف لم يؤثر فى اتجاه الرأى العام وإن فرقه بين كثرة ترى رأيًا وقلة ترى رأيا آخر .

إلا أن هذا الرأى يقف بنا أمام سؤال آخر ويثيره قبل أن نتبين الأثر الناجم عه أو تحكم عليه . هذا السؤال هو : أيهما أسبق الرأى العام أم السلوك ، وبعبارة أخرى ، هل يسلك الناس وفقًا لأفكارهم التى يؤمنون بها ، وهل يتشيعون لما يدور فى أفكارهم . وهل مايقولونه هو ما يفعلونه ؟ .

وللإجابة عن هذا السؤال علينا أن نتبين كما يقول برنارد هينيسى – الرباط الذى يحكم ثلاث صور من المتغيرات ، الصورة الأولى : صورة المواقف ، والثانية : صورة الأفكار . والثالثة : صورة السلوك فهل ينم موقف ما عن اتجاه فكرى هو ماندعوه بالرأى ، وهل ينم الموقف حيال حدث معين والرأى الناجم عنه عن سلوك معين ؟

ولعل ما يذهب إليه علم النفس الاجتماعى من الصلة الوثيقة بين المواقف والأفكار قد يبدو حقا ، فالمواقف اتجاهات مكتسبة وليست غريزية سواء كانت

قبل الأشياء أو الأفراد أو الجماعات ممن تعنيهم أولهم صلة بها ، وقد تمثل الأفكار مواقف حادة ومحددة قبل الأشياء أو الأفراد أو الجماعات كموقف البيض من السود فى أمريكا أو موقف العرب من إسرائيل ، أو موقف الكاثوليك من البروتستانت ، وإن كان من الخطأ أن نضع ذلك موضع التعميم ، وإن كان للرأى الخاص أهمية كبرى حيال بعض المواقف ، إلا أنه كثيرا ما يتناقض مع السلوك الفعلى لصاحبه ، كما يحدث حين تحتفى بأناس لاتحبهم أولا تنتمى إليهم ، فليس السلوك دائما مما ينم عن رأى الناس أو معتقداتهم حين تحكمهم اتجاهات أخرى اقتصادية أو سياسية تفوق الاتجاهات الفكرية أو الاجتماعية .

والرأى الذى يراه فرد من الأفراد ما هو إلا محصلة تجربة فريدة أو خبرة مكتسبة للفرد فى محيطه وفى اتصاله بالآخرين ، وليس كل الناس سواسية فى تشرب الخبرة أو التجربة أو القدرة على التعلم حيث تختلف بينهم القدرات العقلية والعاطفية وحتى يصل الفرد إلى رأى ما فإن هذا الرأى يتكون من خلال الإدراك العقلى والإحساس العاطفى .

إلا أن الرأى يجب أن يتوافق إلى حدما مع الحقيقة القائمة لدى الفرد وإن كانت رؤيا الحقيقة والتوافق معها مما يخضع غالبا للهوى الشخصى وهو ما يطبع الرأى بالتحيف والبعد عن الموضوعية ، فاعتناق الفرد لمذهب سياسى أو اقتصادى أو لفكرة دينية كثيرًا ما يغمض عينيه عن الحقيقة القائمة ، ومن البداهة أن يكون الرأى مريحًا لصاحبه ، فإذا كان للفرد من صحة التقدير ما يمكنه من الحكم على طبيعة الأشياء فإن الرأى لديه غالبا مايتوافق مع طبيعة الأشياء وإن نم عن حاجة فى نفسه وإن مثل هذه الحاجة قد تكون عامة لدى بعض الناس كما يحدث عند الحكم على التيارات السياسية أو أمام صناديق التصويت فى الانتخابات العامة حيث يكون التفاعل بين ماهو واقع وبين الناس أكثر إثارة مما هو لدى الفرد على حدة .

حين تغدو حياة الناس أكثر قدرة على صياغة الرأى العام من حياة الفرد فى ذاته .

ويبدو التماسك الاجتماعى أقوى العوامل فى صياغة الرأى العام ، فالتماسك الاجتماعى نتاج ثقافة متسقة وتنشئة اجتماعية متآلفة تغلفها السئة بكل مقومات القدرة والنماء حين يتسنى لها من المقومات ما يؤلف بين جماعتها ، كما كانت مصر فى التاريخ حيث كان النيل - كما يرى برتراند رسل - أقوى عامل فى توحيد الدولة واتحاد مملكتى الشمال والجنوب ، ومن ثم توحيد المعتقدات ووحدة المشاعر والسلوك العام مما خلدها - كما يقول - وكفل لها الدوام والاستقرار ، وهو مالم يتأت لدولة أخرى غيرها .

الثقافة والرأى العام :

والثقافة وهى أقوى عوامل التماسك الاجتماعى ، إلى جانب البيئة لها دورها المتميز فى تكيف الرأى العام واتجاهاته ، ففى إطارها يتوافق الأفراد مع بعضهم البعض .

والثقافة كما يرى عالم الاجتماع الأمريكى « جون كيوبر » عامل أساسى فى فهم الناس والأفراد ففى إطارها تدور كافة الأفكار التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية بل هى عمادها الأول ويكاد الاجماع يكون عامًّا على أنها جماع القيم الاجتماعية المكتسبة والتقاليد السائدة والأساطير الجارية إلى جانب السلوك العام الذى يسود الجماعة ويجمع بين أفرادها .

ومن خواص الثقافة أنها مكتسبة يتلقاها الفرد ويتشربها منذ نشأته الأولى فى البيت والمدرسة ، وأنها قابلة للامتداد والانتشار بين المجاميع فلا تقف على فرد دون الآخر وإن اختلفت مستوياتها من حيث الخبرة والقدرة على الامتصاص بين فرد وآخر تبعًا لدرجة التعليم والتنشئة الاجتماعية وأنها متسقة فى أصولها ويشترك فيها

الأفراد جميعا ، فما من سلوك فردى أو جماعى إلا وكان نتيجة التفاعل بينه وبين المعالم الأصيلة للاتساق الثقافى مهما ألم بهذا الاتساق من عوامل التغيير.

وتبدو هذه الظاهرة ، ظاهرة التغير الثقافى بارزة فى مجتمع العصر أكثر مما كانت عليه فى الماضى وهى أكثر بروزًا اليوم فى المجتمعات المتقدمة حيث استوت الثقافة على وفاق مع نمط الحياة القائمة ، فالمجتمعات النامية تواجه حضارة تختلف جذورها عما كانت عليه من قبل حيث يفرض التقدم التكنولوجى ووسائل الإعلام الممتدة إلى آفاق أبعد وأوسع مما كانت عليه أنماطًا جديدة من السلوك والقيم والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، بل والاتجاهات والمواقف السياسية تبدو فى كثير من صورها مختلفة عما كانت عليه فى الماضى . وقد مرت المجتمعات المتقدمة بهذا حتى استوت لديها القيم الثقافية والسلوك الاجتماعى على وفاق مع المتغيرات الجديدة للعالم الصناعى النامى .

والجديد غالبا ما يفرض وجوده ، إلا أن إيثار القديم يقف عائقًا دون سرعة التغير ، فالعادة تغلب التطبع ، ولكن سرعان ماتستوى العادة مع الجديد النامى حين يفرض وجوده عليها وحيث يتضاءل التباين الثقافى أمام التوافق مع الجديد .

فحين نادى قاسم أمين بتحرير المرأة فى العقد الأول من هذا القرن لم يجد آذانًا صاغية ، وواجه هجوما عنيفا من الكثرة المحافظة حتى فرض التغير وجوده وظفرت المرأة من الحقوق فى مدى عقدين من الزمان بأكثر مما طالب به لها قاسم أمين ، وحين واجهت السعودية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود مستحدثات الحضارة الحديثة ، لقيت مقاومة عنيفة ، ولم يمض عقدان حتى أخذت السعودية بكل مستحدثات هذه الحضارة وفرض الجديد وجوده على القديم المحافظ .

وتتميز الثقافات القديمة بالندرة فيما هو جائز وما هو ممنوع فهى أكثر استواءً فى داخلها من الثقافات الحديثة فى داخلها أو بعبارة أخرى أكثر ثباتا مما هى حديثا فلم

تكن هناك مثل هذه الاتجاهات العديدة وحرية الاختيار كما هي في المجتمعات الحديثة ، ولم يكن للفرد شخصيته البارزة المتميزة فهو أسير التقاليد الجارية والقيم الاجتماعية والدينية الجامدة التي سادت خلال العصور الوسطى وإذا كان المسلمون في صدر الإسلام قد نعموا بحرية الإرادة إلا أنهم سرعان ما ارتدوا إلى الجمود الذي ساد أوربا خلال العصر الوسيط وعلى أية حال كانت مطالب الناس قليلة تضاءلت معها حاجتهم للاختيار ، فالنبلاء والسادة يعيشون في قلاعهم لايبتعدون عنها ، والناس ليسوا أحرارا في اختيار منازلهم أو مهنهم أو أخدانهم ، فما كان عليه آباؤهم أصبحوا هم عليه كل منهم ملتصق بماضيه وليست لديه القدرة على تغييره . وتبدو هذه الظاهرة ماثلة في النظم السياسية الجماعية في وقتنا هذا ، فحيث تسود القنية والعبودية أو التواتر الثقافي تتضاءل حرية الاختيار وحرية السلوك وينعدم الرأى العام . ومازلت بعض المجتمعات القائمة تحول دون بعض الأقليات الدينية أو العنصرية من الدخول إليها ، بل إن بعض الأقليات الحاكمة كما في جنوب أفريقية تحول دون الأغلبية الملونة وحرية الاختيار فتفرض عليها السكن والعمل وتضرب عليها نطاقًا من العزلة بعيدا عن مجتمع البيض ، وفي أمريكا ذاتها مازال الزنوج يعانون من التفرقة الاجتماعية وإن سوت الدولة بينهم وبين البيض ، ومازال المجتمع الأمريكي يرى في جماعة المورمون جماعة خارجة يرفضونها وإن سوى القانون بينهم وبينها ، كما أن الاقليات الصفراء لاتجد القبول والرضا من جانب كثير من غلاة الأمريكيين ، إلا أن هذه الظواهر لاتحول دون قيام رأى عام يجمع هذه الأقليات أو الجماعات إليه ، بل إنها ظواهر في طريقها إلى الزوال حيث تخترق ثقافة العصر صفوف الجميع على السواء .

وقد اكتسبت الثقافة في القرن الأخير طابعًا عالميا يزداد يوما بعد الآخر حتى يكاد يودى بالثقافات المحلية ويقضى عليها ، حيث تحكم التكنولوجيا طريقة الحياة

وحيث تتحكم المذاهب الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أخذت طابعًا عالميا فى أفكارهم واتجاهاتهم ومهما يكن الحنين إلى الماضى - كما يقول جون كينيث جلبريث أستاذ الأقتصاد بجامعة هارفارد - فإن الحاضر بأنماط حياته المتقدمة والمريحة تشدّ الناس إليها ، فقد يشتاق الإنسان إلى ركوب القاطرة البخارية بعجيجها وصفيرها ودخانها ، ولكنه لايرضى عن القاطرة الكهربائية أو ماهو أكثر راحة منها بديلا .

فثقافة العصر ثقافة عالمية يحكمها التقدم ، بكل ما تسفر عنه مخترعات العصر وأفكاره الجديدة ، فالسيارة والثلاجة الكهربائية وجهاز التكييف قد أصبحت جميعا وسائل ضرورية يتطلع إليها الناس لحياة أكثر راحة ، كما أصبح السفر بالطائرة أكثر وفاء بسرعة الانتقال ، وغدا المذياع والتلفاز حاجة ملحة للناس فى الشعوب النامية والمتقدمة على السواء تجوب بهم شتى بقاع العالم وتنقل إليهم أخباره وأحداثه ساعة وقوعها . مما يفرض على الناس ثقافة مشتركة تكتسح فى طريقها جمود الثقافات المحلية القديمة وهو مايؤدى بدوره إلى قيام رأى عام عالمى .

الثقافة القومية والرأى العام :

إلا أن هذا النمط من الثقافة العالمية النامية لا يحجب الثقافات القومية أو الإقليمية القائمة فلكل شعب ذاتيته الخاصة ، ولكل شعب من التنشئة الاجتماعية والتربوية أوضاعه الخاصة به ، وله من مصادر المعرفة ما يختلف كل شعب فيه عن الآخر ، بداية من الأسرة إلى المدرسة ، فالحياة العامة بما تتيح للإنسان من وسائل المعرفة فالشعوب النامية حيث تشيع الأمية وحيث يصل قلة من الناس إلى أرقى درجات التعليم العصرى نرى الهوة واسعة بين الأميين والمتعلمين مما يحول دون استواء الرأى العام وتماسكه حيث تسيطر هذه القلة على المؤسسات الاجتماعية

والثقافية وأجهزة الإعلام وسلطات الدولة مما يجعل لها الرأى الأعلى والمقدم .

فالأسرة فى أى مجتمع نام أو متقدم أو دون النمو لها دورها البارز فى صياغة الرأى والسلوك فحيث تسود المأثورات القديمة يكون لها من الثقل الاجتماعى فى الأسرة ما يسيطر على سلوك الأفراد فيها ومن خلالها يمتص الاطفال رأى الكبار حقيقة مسلمة لا تقبل الجدل أو النقاش ، بينما نرى من الأطفال فى مجتمع متقدم كالمجتمع الأمريكى أو بين الصفوة المثقفة فى بلد من البلدان النامية كمصر من يناقش رأى الآباء ولا يقبله على علاته ، وإن كان ذلك لايودى بتأثير الآباء على الأبناء إن لم يكن من خلال الأمر فمن خلال النصيحة والتوجيه ، كما أن الأبناء كثيرا مايقلدون آباءهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على الأقل فى دور الطفولة ، فإذا تقدمت بالطفل السن وأصبح أكثر اتصالا بالمجتمع من حوله ، تمثل منه مايستهويه ، ويبقى فى نفسه من تأثير الآباء ما يحكم سلوكه وآراءه ، فإذا كان أكثر قابلية للاستهواء غلب التأثير الاجتماعى تأثير الأسرة .

إلا أن المؤثرات الأسرية ليست ذاتية ولاتدور فى دائرة مغلقة على أفرادها فهناك الجيرة والجيران ، وهناك أصدقاء الأسرة وهم فى العادة من نفس المستوى الاجتماعى والثقافى ، وأحيانا من نفس العنصر والطبقة كما أن مصادر المعرفة لديهم متقاربة إلى حدّ بعيد من المدرسة إلى وسائل الإعلام والعظات الدينية وأقوال الكبار والقادة فى المحيط البيئى وكثيرا ما يكون لهذه المصادر من المعرفة تأثيرها على الاتجاهات السياسية لكافة أفراد الأسرة والجماعات اللصيقة فتكون أكثر تماسكا وائتلافا .

ويرى « هربرت هيمان » – كما يذكر فى كتابه التنشئة السياسية – أن الأسرة هى عماد التنشئة السياسية ، وهو مايبدو واضحًا فى أمريكا أكثر منه فى أى بلد آخر حيث تقوم العلاقات الأسرية وعلاقات الآباء بالأبناء على المناقشة والاقتناع .

أما مايثور من خلاف فى الرأى بين أفراد الأسرة الواحدة فإن مرده فى العادة إلى اختلاف مستويات التعليم حين يتضمن هذا التعليم قيماً ومعرفة جديدة وأنماطاً أخرى للحياة أو إلى اختلاف المستويات الاقتصادية بين أفراد الأسرة ، بانتقال أحد أفرادها إلى مستوى آخر مختلف ارتفاعا أو انخفاضا .

وكثيرا مايؤدى تعدد الطوائف الدينية فى مجتمع ما إلى تعدد الرأى واختلافه فيما بينها . كما يؤدى إلى تباين الفكر السياسى بين طائفة وأخرى ، كما هو فى لبنان ، حيث تتحكم الطائفية فى نظام الحكم ووظائف الدولة وإن جمعتها المصالح الاقتصادية والصالح العام .

وقد يكون الدين وسيلة إعلامية لتعبئة الرأى العام وسببا من أسباب الصراعات الطائفية بين أبناء الدين الواحد كما كان بين الكاثوليك والبروتستانت أو بين أبناء دين ودين آخر كما كان بين المسلمين والمسيحيين من حروب عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية ، فقد كان لخطاب البابا إربان الثانى فى كلير مونت عام ١٠٩٥ بدعوة المسيحيين إلى الجهاد المقدس ضد المسلمين ما أثار الرأى العام المسيحى فى أوربا فاندفعت الجموع من كل لون وطائفة يحملون الصليب لتحرير بيت المقدس ، ولم يرو التاريخ خطاباً أثار الرأى العام فى أوربا المسيحية ما أثاره خطاب البابا إربان الثانى ، وقد بلغ من تأثيره أن سار بطرس الناسك حافى القدمين ممتطياً بغلا طاعما القليل مما يحسن به الناس إليه ومضت الجموع من النساء والأطفال والدهماء وراءه قاصدين بيت المقدس ، فلما نزلوا بالمجر تلقفتهم أسياف أهله خلاصا من الفوضى والنهب الذى أنزلته الجموع بهم حيث غلبت المصلحة المشتركة لأبناء المجر على النزعة الدينية وتلقفت سيوف السلاجقة بقيتهم فى نيقية فلم ينج منهم أحد .

فإذا كانت المصلحة قد غلبت النزعة الدينية فى حملة بطرس الناسك ، فإن المصالح الاقتصادية والسياسية هى القوى الغالبة التى حركت الجموع فى الماضى

وهى أقوى ما يثير الرأى العام ويحرك الناس فى الوقت الحاضر. فالناس تحكمهم مصالحهم ويسيرهم الحفاظ عليها ، فحيث تتوافق مصالح المجموع فإنها تغذى الرأى العام بالوفاق والعمل من أجلها ؛ لذلك كان النظام الاقتصادى والسياسى للمجموع هو أقوى ما يحرك الرأى العام ويجمعه فى الدول الديمقراطية ، إلا أنه يفقد قدرته وفاعليته فى نظم الحكم الاستبدادية ويقف عاجزًا وإن بقى ساخطا ولكنه لايستطيع أن يعلن عن سخطه فى مسار عام ولاينفى هذا وجود رأى عام ولكنه رأى عام عاجز قليل البينة.

وتفوق القوى الاقتصادية فى فاعليتها القوى السياسية ، بل إن القوى السياسية هى نتاج القوى الاقتصادية ومحورها ، ومما يؤثر عن مارك توين قوله « خبّرنى أين يجد المرء قوته لأقول لك ماهو رأيه » ، فما من رأى عام إلا وتقف وراءه رؤيا اقتصادية ومن العسير أن يكون رأى عام دون أن يكون من حوافزه عامل اقتصادى ، فإن كان هناك رأى عام لايحفزه عامل اقتصادى فإن مثل هذا الرأى العام نادر ولا أهمية له.

وتتمثل القوى الاقتصادية فى حاجات الناس المادية إلى ما يشبع بطونهم ويوفر لهم الخدمات العامة ويهيىء لهم فرص الرفاه والراحة وكل ما يشبع رغباتهم ومطالبهم وليست القوى الاقتصادية بضائع وخدمات فحسب ، ولكنها العلاقات الاقتصادية التى تحكم المجموع وتصل بين أفراده وترضى تطلعاتهم.

إلا أن القوى الاقتصادية غالبا ما تخضع للقوى السياسية ، وإن قيل إن السياسة تابع للاقتصاد فحيث تسيطر القوى الاقتصادية يفوق تأثيرها أى تأثير آخر على مجريات السياسة ، وإن بقيت متوارية لاتسفر عن نفسها صراحة ولكنها تسخر القوى السياسية لصالحها ، بما لها من سيطرة على وسائل الإعلام وقدرة على الدعاية الانتخابية واختيار المرشحين المساندين لها ، وحين تلجأ إلى ذلك فإنها تعبد الطريق

للسيطرة على المؤسسات الاجتماعية والثقافية والإعلامية والسياسية التى توجه الرأى العام ملتزمة بالمبادئ والأسس الديمقراطية التى يدين بها ، فالفيصل أمامها هو صناديق الانتخاب وبقدر ماتقوم به هذه القوى للسيطرة على الرأى العام وتوجيهه فإنها لاتنكر نبض المجتمع وتطلعاته فبقدر ما تأخذ بقدر ما تعطى ، ويصبح عامل التوافق والرضا بين الطرفين ، المؤسسات والناخب - هو العامل الأساسى فى توجيه أصوات الناخبين ، فإذا انفصلت هذه المؤسسات عن اتجاهات الناس وأنكرت مطالبهم فإن الصلة بينهما تنفصم ، ويعلو رأى الناس ويكون هو الفيصل فى الرضا وعدم الرضا .

ويتفاوت الإطار الديمقراطى لهذه الصلة بتفاوت التنشئة السياسية والثقافية والعلاقات الاجتماعية فى بلد عن الآخر ، فهى فى أمريكا وبلدان غرب أوربا حيث تتقارب هذه التنشئة وتتلاحم الفواصل غيرها فى البلدان النامية حيث يغيم الفكر السياسى وتبرز الفواصل الاجتماعية والثقافية ، بانتشار الأمية وشدة التفاوت الطبقى ويطر الانتلجنسيا والبيروقراطية على الحكم ، ولا سيما حين يغلب عليها الطابع العسكرى وسيطرة العسكريين ومن يلوذ بهم على الحكم كما هو سائد الآن فى البلدان النامية ، حيث تسيطر هذه الطبقة على مقدرات الحكم وتهيىء الأنظمة والمؤسسات السياسية والاقتصادية التى تضمن لها السيطرة والبقاء . ولا تغفل هذه الطبقة اتجاهات الرأى العام فتحاول أن تسوقها إلى ماتهوى وإلى ما يمكن لها من السيطرة وبقاء الحكم فى أيديها .

فإذا سادت الديكتاتورية تحت أى صورة من الصور كما هى فى النظام الجماعى فى الاتحاد السوفيتى والدول التى تدور فى فلكه حيث يسود فكر مقنن يخضع لفلسفة سائدة هى الفلسفة الشيوعية والفكر الماركسى ، فإن النظام يحجب ماينقضه أو يعارضه لأى اتجاه آخر ، فلايبدو من الرأى العام إلا مايساير النظام ، وليس للرأى

الآخر إلا أن يحتجب مؤثرًا السلبية أو يشايع مؤثرًا المنفعة ، وفى مثل هذا النظام لايكون ثمة رأى عام حقيق أو سافر ، ولايكون ثمة صدى للحكم فى الرأى العام .

والديمقراطية أو النظام الديمقراطى هو أبرز وأقوى مقومات الرأى العام ، وقد عرف المجتمع الأثينى الديمقراطية قديما وميز فلاسفة اليونان بين صور الحكم ، فقال أفلاطون وأرسطو إن الملكيات تقوم على حكم الفرد ، فإذا كان الحكم لقلة من الناس فهو حكم الأرستقراطية ، أما إذا كان الحكم للمجموع الأكبر فهو الحكم الديمقراطى .

وقد يكون لحكم الفرد أو القلة من الصدى لدى الناس ما يستهويهم ويثير إعجابهم بالرضا ، إلا أن مثل هذا الحكم لايضع فى باله اتجاهات الرأى العام أو يحاول أن يتبينها كما هى فى النظام الديمقراطى ، فالملك المستنير كما كان صلاح الدين الأيوبى وكما كان الخليفة عمر بن عبدالعزيز ظاهرة فريدة فى التاريخ .

فالرأى العام هو وليد الديمقراطية والنظام الديمقراطى فى الحكم حيث يتاح لكل فرد أن يبدى رأيه وأن يختار من يصلح للحكم وأن يتقدم هو نفسه ليشارك فى الحكم ، وهو الصدى لما يقوم به الحكم فى أذهان الناس ، وكلما اكتملت شخصية الفرد وقدرته على الاختيار أمام صناديق الانتخاب متحررًا من الذاتية معنيا بالمسائل العامة يحدوه العقل وحسن التقدير والإدراك الواعى لما هو حق كلما كان صادق الاختيار قادرا على الحكم بين المرشحين ، وكلما كان التماثل الاجتماعى والثقافى بين الأفراد متقاربا امّحت الفجوة بين الاتجاهات الفردية والاتجاهات العامة للأحزاب والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فالديمقراطيات الحرة — كما يرى الكاتب السياسى الأمريكى برنارد بيرلسون — ليست نظاما سياسيا يديره الناخبون والمؤسسات السياسية فحسب ، وحتى تثمر وتبقى فإن عليها أن تحد ما بينهما من خلاف ، وأن تحول دون أى نزاع يجد ، وأن

يسودها التوافق الاقتصادى والاجتماعى ، وأن تأتلف الأحزاب على وفاق وأن تماثل الهيئات الاجتماعية بحيث تصدر عن الرأى الغالب .

المتغيرات الثقافية والرأى العام :

فإذا كانت الثقافة تعبيرا عن النمط السائد للحياة وأنها القدرة على التكيف مع هذا النمط السائد ، فإن التغير الدائب فى صور الحياة يضفى عليها أنماطًا جديدة تطبع الثقافة بطابع جديد ، لا يقل أثرًا عن طابع البيئة بكل مأثوراتها الخاصة وتقاليدها المحلية ونمط الحياة الذى تسلكه وتجد فيه أشباعا لحاجاتها ، فالجماعة الإنسانية وليدة البيئة التى تحياها بكلماينوشها من تطور وما يحتويها من تغير ، والتطور سنة دائبة تخضع لها البيئة كما تخضع لها الجماعة الإنسانية ولا يملك أحدهما القدرة على تلافيها ، أما التغير فهو من عمل الإنسان وقدرته على التغيير الملائم للنمو ، وقد يكون هذا النمو من داخلها بفعل قوى جديدة غالبا ما يكون مصدرها فكر جديد ، أوطارئا عليها بفعل قوى خارجية أخذت تلح عليها حين تجد فيها خيرًا لها . إلا أن الفكر الداخلى الذى يحدوها للتغيير ، غالبا مايكون أثرا لقوى خارجية طارئة غلابة مهما لقيت من مقاومة ، فإنها غالبة لأنها تملك القدرة على النمو المتوافق مع حاجة الإنسان للارتقاء والتقدم ، فحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر جاءت معها بصور وأنماط للحياة تختلف عما كان لدى المصريين ، فأضاءت الحوارى وكنست الشوارع « ونبهوا على الناس – كما يقول الجبرتى – بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن .. ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة .. ومن قولهم أيضا : إن مرض مريض لابد من الإخبار عنه ، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه .. ثم يرون رأيهم فيه » .

إلاّ أن ماجاء به الفرنسيون كان غريبا على المصريين فما ألفوه من قبل وكان عسيرا عليهم أن يألفوه فى بدايته ، فلما انقضى الزمن وعرفوا الخير فيه ، انتهجوه وساروا عليه ، وجاءت الحاجة إلى التغيير نابعةً من ذواتهم لتصوغ حياتهم على نمط جديد رأوا فيه نفعًا لهم . فالتغير الفكرى قد سبق التغير العضوى وصاغ ثقافة جديدة ، تبدو فى ظاهرها تلقائية ، ولكنها فى حقيقتها كانت أثرا لاقتناع الرأى العام بها .

والرأى العام ينشأ ويربو فى ضمير الناس قبل أن يندّ به سلوكهم ، ولايبدو فى هذا إثارة عارضة ينبذ بها موقف عارض ، وهو ماينوش الرأى العام فى كل مالايألفه أو لا يرى فيه صالحه ، وهو ما يمكن أن نسميه الرأى العام العارض ، ولكنه الرأى العام الذى ينشأ على مهل وأناة حتى يسود فإذا ساد غدا رأيًا عامًّا جامعا يطبع ثقافة المجموع بصورة جديدة وغالبا ماينبذ بفكرته فرد متميز أو قلة من المجموع هم الذين نسميهم دعاة الإصلاح ، فلم يكن الشيخ حسن العطار على رأى الجماعة فى نظرتها لما رأت من الفرنسيين ، يقول عنه على مبارك فى ترجمته له : « اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها .. واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ماليس فيها ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » .

إلا أن الشيخ حسن العطار لم يجد لأفكاره صدى فى الرأى العام ، فنراه يستشهد بما قاله ابن الجوزى فى مجالس وعظه ببغداد :

مافى الديار أخو وجد نطارحه   حديث نجد ولاخلّ نجاريه

ثم يقول : « وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف »
فقد كانت الفجوة واسعة بين ثقافة هذا الشيخ وثقافة المجموع ، وحين تتسع

الفجوة بين المثقف والعامة يصبح غريبا بينهم ولا يملك إلا أن يخاطب القريبين إليه النازعين إلى فكره ، فنراه يخاطب تلميذه رفاعة الطهطاوى بعد أن رشحه لدى الوالى ليكون إماما لمبعوثيه إلى فرنسا ، ويشير عليه أن « ينبه على مايقع فى هذه السفرة ، وعلى مايراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة » ليثير فيه نزعة البحث والتأمل والاستقراء . فطالما نبه الشيخ إلى قعود الأزهريين عن طلب العلم فيما لايتصل « بالعلوم الشرعية » .

إلا أن الطهطاوى كشيخه العطار لم يكن إلا هاديًا ومرشدًا وما كان داعيًا فلم يتصدّ لثقافة الجماعة بالإنكار ، بل رادها بالفكرة والرأى وما كان للفكرة أن تثمر ولا للرأى أن يشيع إلا فى بيئة أخذت من التعليم قدرًا يتيح لبعض جماعتها أن تدعو بدعوته فكان يسوق الرأى مغلفا بالرواية لايفصح فيها عما يدين به أو يحبذه ، فإذا نمت الرواية عن حقيقة غريبة على قومه لم يفصح برأيه فيها « كالقول بدوران الأرض ونحوه » فأثبت رأى غيره دون إنكار أو تأييد فى كتابه « تخليص الإبريز » .. فقد كان يرى أن الناس إذا تعلموا فإنهم مدركون غدًا ما يعسر عليهم إدراكه اليوم ، وليس له أن يتصدى للرأى العام بما يخالفه فيه .

وبقدر ما يكون عليه الرأى العام من ثقافة متقدمة بقدر ما يتقبل كل جديد ويتشيع له ، فالرأى العام هو المعيار الذى نستطيع أن نحكم به على ثقافة المجموع الذى يصدر عنه ، أهى ثقافة نامية متطورة تتكيف مع التغير النامى لروح العصر وتقدمه ، أم هى ثقافة آسنة راكدة جامدة تتشيع للقديم ولا تبغى به بديلا .

ولم تكن مصر حينذاك بقادرة على تمثل هذا الجديد الذى رأته من الفرنسيين أو استيعابه ، ولم يظفر هذا الجديد باهتمام الرأى العام إلا من حيث غرابته ونقده والتندر به ثم أنكروه لأنه من بدع الإفرنج ، وكل ما أثارهم وظفر باهتمامهم وأجمعوا عليه الرأى هو تلك القارة الأوربية التى ترتبط دائما فى أذهانهم بذكريات

الحروب الصليبية والعدوان على بلاد الإسلام والمسلمين .

ولا يبدأ دعاة الإصلاح خطاب الناس والاتجاه إلى الرأى العام إلا حيث توجد الجماعة ، وإن كانت قلة التى تمثل هذا الاتجاه بين اتجاهات الرأى العام ، وعادة ماتكون هذه القلة سابقة عصرها فاستوعبت معالم الثقافة المعاصرة فى أرقى صورها وأخذت تدعو لما تراه قيمًا بغيرها أن يسلكوه ، أو تقف سندًا للداعية الذى يتصدى للرأى العام ، فلم يتجه قاسم أمين بدعوته إلى تحرير المرأة . إلا بعد أن رأى فى الناس من يصيخ السمع إليه ويساند دعوته ، فإن هذه القلة من الناس هم طلائع الوعى الجديد الذى يسلك طريقه إلى دائرة اللاشعور من ضمير الناس ، وحين نادى الإمام محمد عبده بإصلاح الأزهر وتجديد الإسلام أو بعبارة أخرى بعث الوعى الأصيل بالتعاليم الإسلامية كانت هناك قلة تسانده وكثرة تناوئه ، وحين قام لطفى السيد بدعوته إلى نبذ القديم إلى معالم الحياة العصرية ، التف حوله قلة من المثقفين ممن وعوا روح العصر فكانوا أعلام النهضة الفكرية فى مصر المعاصرة كهيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى والعقاد والمازنى وازدان بهم العصر ، وكان أستاذهم وكانوا هم تلاميذه وحمل بحق لقب « أستاذ الجيل » .

فالثقافة تصنع الرأى العام ، فإذا كانت ثقافة آسنة راكدة كان الرأى العام آسنًا راكدا لايتشيع لغير البالى من القيم والتقاليد القديمة ويصبح الصراع بين القديم والجديد والمحافظين والمجددين سمة على بعث جديد لم ينو بعد فى ضمير الناس وإن أخذ يمثل اتجاها ناميًا من اتجاهات الرأى العام ، وقد يبدو هذا الصراع إرهاصًا بالتفاعل بين ظاهرتين أو نمطين من أنماط الثقافة ، وغالبا ما يسفر هذا التفاعل عن غلبة الجديد ، فإذا غلب كان اتجاهًا جديدا للرأى العام ؛ مادام التغير هو العنصر الغالب فى التفاعل ، وهو مايغلب على اتجاهات الرأى العام فى البلاد النامية ، حيث يعجز القديم أمام التطور المادى للحضارة وأمام أنظمة سياسية واقتصادية

غالبة لم يكن لها وجود من قبل ، قد تقمع الرأى العام ، ولكنها لا تستطيع أن تحجبه ، فإن حجبت اتجاها سياسيا أو اقتصاديا معينا فإنها لا تستطيع أن تحجب الامتداد المادى للحضارة ، بما لأدواتها من أثر فعال على سلوك الناس وعلاقاتهم وآمالهم وحاجتهم لإشباع المطالب الجديدة من الثلاجة الكهربائية والمسرة والمذياع والتلفاز فى الدار إلى السيارة والقاطرة والطائرة والطرق المعبدة التى يحتاجها خارج الدار .

فإذا كان لنا أن نصف ثقافة الماضى بالركود ، مهما تباينت أسباب الركود وتعددت بداية من العزلة إلى التخلف الحضارى فإن ثقافة العصر لايمكن أن يأتيها الركود أو يعتادها الجمود ، فقد انقضى عصر العزلة إلى غير رجعة ، ولم تعد هناك حضارة إقليمية فقد أصبحت الحضارة عالمية لاتقف دونها سدود أو حدود ومايحدث فى أى بلد يعرفه الناس فى أقصى البقاع لتوه ولحظته فالطائرة تقرب القاصى من الدانى والتلفاز ينقل البعيد إلى القريب والمذياع يثرثر فى الدار وفى الحقل بأخبار العالم وأغانيه ولم يعد للجبل أو البحر من عاصم أمام الآلة التى تكشف أغواره ومراقيه . ولم تعد الثقافة ميراثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، أو نأمة ينم عنها ماض بعيد . وإنما هى معرفة وتعليم ، وهو مانتفق فيه مع جون جيلين مؤلف « مسالك الرجال »[1] ومايراه الناس من دقة الملاحظة ، هى المعرفة التى يتعلمها الإنسان فى فترة التنشئة ، فليس هناك مايحمل الصبى أو الفتاة على نهج سيىء من سلوك الآباء ، ولايعدل تعاليم المدرسة أو المعلمين ما يمتصه الصبى أو الفتاة خلال التنشئة من تعاليم ومأثورات ، فقد أصبح التأثير الاجتماعى للبيئة والمجتمع أقوى من أى تأثير آخر للمدرسة أو الآباء ، ولم يعد للماضى من القداسة ماكان له من قبل ،

---

(١) Ways of Men, by Ghon Gillin, Copyrighk, 1948. D.Appleton Century Company, Inc.

بل إنه ليغدو فى بعض الأحيان سخرية الجيل الناشئ ، ولسدّ ماتتفاوت المؤثرات بين جيل وجيل فقد أصبح وقع الأحداث والمتغيرات بالغ السرعة ، والفرق بين جيل وجيل هو الفرق فى نبض الزمن ومايعكسه من تفاعل بين الفرد والحدث الجديد وثقافات الشعوب تتلاقى وتتفاعل والغلب فيها لعنصر التفوق ، فالمغلوب – كما يقول ابن خلدون – مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده .. بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب ، .. فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به . وذلك هو الاقتداء .. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها بل وفى سائر أحواله » .

ولعل فيما قاله ابن خلدون تفسيرا لما ذهبت إليه شعوب المستعمرات من تقليد المستعمر ، ولتفوق الثقافة الأوربية على غيرها من الثقافات ، حتى احتل الأمريكيون ذروة القوة والتفوق المادى فى العالم . فأصبحت ثقافتهم على حداثتها هى الغالبة فانتشرت الأزياء الأمريكية من البلوجينز والقمصان الزاهية كثيرة النقوش ، وعبارات التحية وموسيقى الجاز والرقص الأمريكى وامتدت إلى كل صقع من أصقاع العالم ، حتى أصبحت هوى الروس أنفسهم على بعد مابينهم وبين الأمريكيين من تباين فى نظام المجتمع ونمط الاقتصاد وأساليب الحكم .

إلا أن مثل هذا التغير فى معالم الثقافة ، مهما كان من القوة ، كما نراه فى الشعوب الأفريقية والآسيوية النامية أوبدا جامدا أو بطيئا كما كان فى أوربا خلال العصور الوسطى ، فإن قوة الجذب بين القديم والجديد فى ثقافة أى مجتمع – كما يرى برنارد هينيسى مؤلف « الرأى العام »[1] – أو بين التجديد والمحافظة هى حافز

(1) Public opinion by Bernard C. Hennsay: the Wadsworth publishing Company Inc.

التغيير يغلب فيها الجديد القديم الجديد من الآراء والجديد من المخترعات وتكنولوجيا العصر ، وإن بقيت التقاليد وتواتر الواقع دعامة الجمود الثقافى ، فإن ما حفل به العصر من معالم الحضارة الحديثة قد زود التغيير بقوى هائلة خبت إلى جوارها كل قوى الثبات والجمود وأصبح التباين فى البناء الثقافى أقوى مما هو بين الأفراد فلم يعد هناك قهر أو إملاء أو توجيه كما كان منذ بضعة قرون ، فلكل فرد أن يختار ما يشاء وأن يسلك مايريد ، وليس من بين رجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ، أو الكتاب ورجال الإعلام أو المربين وغيرهم من الدعاة والمبشرين من يدعو إلى الاتساق والتناغم والتشابه بين الأفراد أو المجاميع بما يفرضه هذا الاتساق من قهر الناس عليه ، أو قمع الفكر ، أو حمل الناس على سلوك ما ، كما كانت مجتمعات الرق - كما يقول هينيسى - حين حرمت الرقيق من أى فكر أو سلوك ذاتى .

والطواعية والاختيارهما طابع الثقافة المعاصرة حيث تسود الحرية الفردية كما هى فى الولايات المتحدة مثلا ، ومادامت أدوات الحضارة الحديثة تمتد إلى أبعد مدى فإن تأثيرها على سلوك الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية يبدو جارفًا حتى وإن بدا تأثيرها السياسى فى الشعوب النامية أقل مما هو فى الشعوب المتقدمة ، مما يبشر فى القريب العاجل بتقارب الأبنية الثقافية على تعددها ، وإن بقى لكل بناء ثقافى معالمه الثقافية التى تصله بماضيه ومأثوراته الدينية وقيمه الأخلاقية ، فلئن اقترب سلوك الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية بعضها من بعض داخل الأبنية الثقافية المتباينة ، فسيبقى لكل بناء ثقافى معالمه الثقافية الخاصة التى يحكمها الدين كما تحكمها مأثورات القيم والأخلاق .

فإذا قلنا إن الثقافة إحدى المقومات الأساسية للصورة التى يبدو عليها الرأى وامتداده ، فإننا لاندعى أنها هى التى تكون الرأى ولكنها تطبعه بطابعها قوة وضعفا

فإن ما يتشيع له الرأى هو مايتوافق مع الثقافة الغالبة على شيعته ، فإذا تباينت لأنماط الثقافية فى البناء الثقافى العام كان التباين فى الرأى العام حيال موقف من المواقف ، والرأى الغالب لمن كانت شيعته أكثر عددا ، وليس من اليسير أن يكون الرأى العام على إجماع ، فليس هناك رأى عام جامع إلا فى حالات نادرة ، كما لايوجد بناء ثقافى لاتتعدد أنماطه الثقافية وإن غلب فيها نمط على غيره من الأنماط الأخرى . وإن كانت شيعته قليلة العدد ، وغالبا مالايكون للثقافات القديمة التى تمنح وتمنع تأثير على الرأى العام كما أن الثقافات الضيقة المحدودة ليس لها هى الأخرى من تأثير على الرأى العام إلا فى القليل النادر ، فإذا تضاءل المنح والمنع بدا أثر الثقافة على الرأى العام واضحا : حيث يتث للفرد أن يستوعب الأنماط المتباينة للأبنية الثقافية المتعددة ، ويختار منها مايشاء فتضيق هوة الخلاف فى اتجاهات الرأى العام .

حوافز الرأى العام :

ويرى برتراند رسل أن مرد النشاط البشرى هو إلى الرغبة أو النزعة دون الواجب والأخلاق . فنراه يدين نظرية الأخلاقيين فى تقديم الواجب والإخلاص على الرغبة والنزعة ويراهما وهمًا كبيرًا ، فالواجب لايحضز الإنسان مالم تكن لديه الرغبة فى أن يفعل ما يمليه عليه الواجب ، فإذا أردت أن تعرف اتجاه الناس ورأيهم وغلبة اتجاه أو رأى على الآخر ، فى مسألة من المسائل ، فإن عليك أن تعرف رغبتهم فى تلك المسألة وأهميتها لديهم .

والرغبة الأساسية عند الإنسان هى حاجته الى المأوى والمأكل والملبس ، فإذا تعذر عليه الحصول عليها ، فلا حدّ لجهده فى تذليل مايحول دون رغبته تلك ، وليس هناك مايحول بينه وبين أى سبيل للعنف يسلكه فىسبيل ذلك ، وأحداث

التاريخ مليئة بما يؤكد ذلك ، فقد أدى القحط فى جزيرة العرب إلى انسياح أهلها إلى المناطق المجاورة حيث تطيب الحياة ، كما كان انسياح القبائل الجرمانية من الشمال إلى الجنوب طلبًا لوسائل العيش ، ومازالت الرغبة فى الطعام أقوى حافز للإنسان فى كل مايقوم به .

ورغبات الإنسان لاتقف عند حدّ ، فعندما استولى العرب على ثروات الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وهم الذين كانوا يعيشون على القليل مما تجود به البيئة . نمت رغباتهم فى التنعم والرفاه بقدر ما أضفت عليهم هذه الثروات الجديدة من أسبابها ، وعندما أفاض عليهم البترول من دخله تغيرت حياتهم تماما عما كانت عليه من قبل ، فالإنسان تحكمه رغبات أخرى مماثلة تظل كامنة حتى تتوفر لها أسبابها يراها برتراند رسل فى حب التملك ، والتنافس والرغبة فى الخيلاء والقوة ، ومازال حب التملك وخاصة لمن يملك القوة من أقوى الدوافع لدى الإنسان ، وهو الحافز الأساسي فى النظام الرأسمالى ، إلا أن التنافس أقوى وأبعد مدى ، فقد يقبل الإنسان الحرمان ليقضى على منافسه ، فالحروب التى يخوضها متحاربان تقضى عليهما معًا إلا أن التنافس بينهما يعميهما عن الحقيقة ، فالتنافس بين أمراء المسلمين فى الأندلس أدى إلى نهايتهم والتنافس بين دول الوسط ودول الغرب فى أوربا أدّى بهم إلى الحرب العالمية الأولى والثانية وانتهت الحربان بهما إلى التبعية لقوى أخرى غالبة جنت ثمار التنافس بينهما فظهرت إلى الوجود قوتا أمريكا والاتحاد السوفيتى بدلا من القوتين البريطانية والألمانية المتنافستين ، ويخوض العرب فى الوقت الحاضر معركة من معارك التنافس تجعل لإسرائيل التفوق عليهم .

وللخيلاء والرغبة فى المباهاة والشهرة وشهوة المجد أثره البالغ فى حوافز النفس الإنسانية يمتد مع الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة والهرم ، وللخيلاء أثرها على النابهين من أرباب السياسة والأدب والفن والاقتصاد ، وقد تبدو الخيلاء أقوى أثرًا

لدى الأفراد منها لدى الشعوب ، ولكن للشعوب من حب الخيلاء ما يدفعها إلى التعالى على غيرها من الشعوب الأدنى ، كما هو الحال بين الشعوب المتقدمة والشعوب النامية أو المتخلفة أو كما هو بين البيض والزنوج فى أمريكا ، أو بين رجال الإمبراطورية البريطانية وبين من يعيشون بينهم فى المستعمرات ومن يرى سلوك الإنجليز الآن فى البلاد التى كانوا يستعمرونها يرى الفرق بيّنًا بين اليوم والأمس القريب .

وتتصل الرغبة فى الخيلاء بالشهوة إلى القوة . فإذا كان فى المجد إشباعًا للخيلاء فإنه يبقى قاصرا على الفرد فى ذاته وليس له ثمة تأثير على المجموع أو اتجاه الرأى العام ، فإذا كانت القوة مصدر الخيلاء كما هى فى العادة لدى من يملكونها ، غدت القوة هى الحافز الذى يغلب أى حوافز أخرى سواه ، سواء فى العلاقات التافهة بين الخدم والسادة أو بين الرئيس والمرءوس . أو بين الموظف الصغير الذى يملك قضاء حاجة لقاصد ، وهذا القاصد ، فإن الموظف الصغير ينتشى بالرفض أكثر مما ينتشى بقضاء الحاجة ، فإذا كانت القوة لدى من يملك مصير الشعوب من المستبدين والذين يحكمون حكما مطلقا فإن نزوة القوة ذات أثر بالغ فى اختفاء الرأى العام ، وإن كانت لاتمنع تكوينه حين ترهق الشعوب نزوات الحاكم وتبدو الفرصة سانحة للتعبير عن السخط العام .

وهذه الرغبات العامة التى تحفز الإنسان للنشاط هى أقوى مايؤثر على الرأى العام حين تتصل بالسياسة والحكم ، فالرغبة فى التملك والتنافس هما محور النشاط الاقتصادى والرغبة فى الخيلاء والقوة هما محور النشاط السياسى للحكام والشعوب . وفى هذه الرغبات يتبلور اتجاه الرأى العام .

وقد تكون الإثارة من محركات الرأى العام وإن كنا لانعدها من مقوماته ، وإن قصرنا بحثها فى هذا الصدد على حاجة الإنسان إلى الإثارة كمتنفس للضجر دون الإثارة كوسيلة لتحريك الرأى العام ، فإنسان العصر وقد وقته الآلة من الإرهاق

البدنى وقسوة العمل اليدوى فى حاجة إلى متنفس لطاقته البدنية المختزنة . وقد يكون المتنفس ضارا أو بالغ الشر ، كان يسوق الضجر أو الملل الناس إلى العنف ، وقد يكون المتنفس بريئًا يضفى على الناس المتعة والراحة ، فبينما ترى لاعبى كرة القدم يستمتعون باللعب ويستمتعون بالاسترخاء بعد اللعب نرى المتفرجين الجالسين يدفعهم الحماس للمباراة إلى التعصب لأحد الفريقين وينتهى الأمر بهم إلى الشجار ، وحاجتهم إلى الشجار هى التى توحى إليهم بالتعصب ، وليس التعصب هو الذى يدفعهم إلى الشجار ، إذ يجدون فى حمى الجماعة التى تتعصب لفريق ما يصدرون به عن حاجتهم للتحرر من الضجر الذى يسود حياتهم النفسية والطاقة التى تختزنها قوتهم العضلية حيث يعجز الفرد أو يجبن وحده عما يتاح للجماعة أن تقوم به . ويفسر برتراند رسل هذه الظاهرة بأن قوانا العقلية تتلاءم وتتوافق مع عمل بدنى شاق بالغ القسوة ، ويقول إنه تعود فى صغره أن يسير على قدميه خلال إجازته خمسة وعشرين ميلا فى اليوم « فإذا جاء المساء لم تكن بى حاجة إلى ما يبعد عنى الضجر . وكانت متعة الجلوس تكفينى تماما ، ولايرى غرابة فى أن يحتشد الناس فى ميدان الطرف الأغر ليهتفوا بأعلى أصواتهم للحكومة التى قررت أن تبعث بهم إلى الحرب ليموتوا .

أما الإثارة كمحرك للرأى فإنها تقوم على شحن الناس بفكرة تتوافق مع مايدور فى أذهانهم عن حالة ما ، فالأحداث التى سبقت الحرب العالمية الثانية والتى وضع بها هتلر العالم على حافة الهاوية قد عبأت مشاعر الناس فى إنجلترا وفرنسا بالنقمة على ألمانيا حتى غدت محاولات تشمبرلن رئيس الوزارة الإنجليزية لتسوية النزاع سخرية الناس فى بريطانيا ، فلما اجتاحت ألمانيا بولندا كان الرأى العام الإنجليزى والفرنسى مهيئا لقيام الحرب ، وفى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٣ سبتمبر ١٩٣٩ أعلن تشمبرلن قيام حالة الحرب بين بريطانيا وألمانيا . وفى الساعة الخامسة من مساء

نفس اليوم أعلنت فرنسا أنها فى حالة حرب مع ألمانيا وبدأت الحرب العالمية الثانية والرأى العام لكلا المتحاربين مهيأ لها . بعد أن أثارته تحركات ألمانيا العدوانية . بينما كان الرأى العام فى ألمانيا معبأ منذ معاهدة فرساى ١٩١٩ للثأر من هزيمتها أمام الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . وأخذ هتلر يغذيه وينميه طوال حكمه وبدأت ألمانيا الحرب وهى معبأة بفكرة الثأر أكثر مما هى معبأة بأحلام المجال الحيوى التى نادى بها هتلر .

فالإثارة من أهم محركات الرأى العام تلجأ إليها حكومات المعارضة فى الدول الديمقراطية لتحويل الناخبين إلى صفها والفوز بالحكم .

وعنصر الإثارة هو ما يلمس أهواء الناس ، فالناس فى الشعوب الفقيرة لايحركهم غير الجوع ، وقد لايحركهم أن يتساوى الناس فى الجوع ، وإنما يحركهم التفاوت كأن تتخم القلة وتجوع الكثرة ، فإذا برز العامل المثير الذى يحرك الجياع كانت الثورة . وتضرب الشيوعية على هذا الوتر الحساس فى الشعوب الفقيرة لإثار الناس ضد نظام لايدين بها ، فإنها لاتعنى بشرح الفلسفة الشيوعية إلا من هذا الجانب الذى يقسم المجتمع إلى برجوازية مستغلة وبروليتاريا كادحة تستغلها البرجوازية لتزداد على حسابها ثراء ونعمة ، بينما تضرب الرأسمالية على وتر التقدم الذى يحقق الرخاء للجميع فإذا لم يتحقق الرخاء تحت حكم القلة الأثيرة ، كانت الشيوعية أقرب إلى استهواء الناس حيث يغفل الناس عن أى قيمة أخرى غير الجوع الذى يعصف بهم ، ويلتبس الجوع بالجور والظلم وبكل مايعصف بقيم المجتمع القائم .

فالرأى أو الفكرة التى تستهوى الرأى العام مما يجب أن يرتاح لها الفرد ، وهذه الفكرة أو الرأى مما يجب أن يستند إلى واقع قائم وحالة بارزة يدركها الناس ويحسون بها ويعقلونها ، أما الغموض والبعد عن الواقع فإنه لا يحرك الناس بقدر ما يثير

البلبلة بينهم ، فالرأى يحكمه حاجة الفرد وتصوره الذاتى ، حيث يختار الناس من الرأى مايوافق أهواءهم وتصورهم .

والإثارة وسيلة إعلامية لتحويل الرأى العام عما هو يؤرق الحاكم ويخشاه من جانب المجاميع بأن يحول اهتمامهم إلى ماهو أكثر إثارة وأشد تحريكا لانفعالاتهم مما يعلوفى نظرهم عماهوقائم لإثارتهم ، وغالبًا مايكون هذاالمتيرالأكبرمتصلا بسلامة الوطن وأمن المجموع من غوائل الأزمات الخارجية كتوتر العلاقات السياسية التى تهدد بحرب أو نزاع مسلح يحمل الناس على نسيان نوازعهم الداخلية أو الإغضاء عنها تأمينًا لسلامة الوطن ، وكثيرا ما تلجأ الدكتاتوريات الحاكمة إلى هذا النوع من الإثارة تلهية للناس عن أوضار الطغيان والأزمات الداخلية وأكثر ماتكون هذه الأزمات الخارجية مختلفة وإن لم تأمن العثرات والتورط الحقيق فهى فى هذا سلاح ذو حدين إن نجح مرة فشل مرات .

الإعلام وسيكلوجية الرأى العام :

ما من مضمون تباينت مصطلحاته كما تباينت فى الإعلام ، حتى غام مع هذا التباين مدلوله وتعريفه وإن أجمع فى النهاية على غاية واحدة ومرمى محدد . وهذا هو طابع العلوم الإنسانية على أصالتها وقدمها ، مما يحملنا على أن نتلمس لأنفسنا العذر فى هذا التباين ، فالإعلام وإن أولج فى الماضى وصاحب الإنسان فى طفولته الباكرة ، إلا أنه لم يصبح علمًا مقننا يشغل الدارسين إلا فى هذا القرن ومنذ بضع عشرات من السنين ، وإن نشأ فتيا عارمًا درج من الطفولة إلى عنفوان الشباب بقوة وحيوية بالغة . حتى أضفينا عليه وصف الثورة فقلنا « ثورة الإعلام » وإن كانت وصفًا للقنوات والوسائل التى زودتها التكنولوجيا الحديثة بالقوة والغلبة والسيطرة على الرأى العام وتوجيهه فرسالة الإعلام بكل فصائله هى رسالة إلى الرأى العام

ماثلا فى المجموع وليست رسالة من فرد إلى فرد وإن عدّها البعض من قبيل الإعلام . وإن كنا نعدها من قبيل الحديث الشخصى وليس لها مكان فى عالم الإعلام فالإعلام إعلام للرأى العام ، ولا إعلام بدون جماعة تمثل رأيا عاما .

وخطاب الرأى العام هو الذى أضفى على الإعلام أهميته حتى فى بداوته الأولى حين كان حديثًا مباشرا فى ندوة أو محفل ، أو إلى الجماعة ككل من حاكم أو صاحب سلطان يصدر بتعاليمه إلى الجماعة التى يحكمها سواء كانت طاعتها له عن رضى أم قامت على الإرغام . ومنذ أصبح للرأى العام تلك الأهمية التى أضفتها عليه الديمقراطية والحريات الفردية يخضع للتقنين العلمى والبحث الاستقرائى لاستهوائه مادام قد تحرر من القيد والطغيان والكبت الذى ينطوى عليه . فأصبح الاستهواء محورًا لدراسات عديدة تسخر العلوم الإنسانية لغايتها بكل ما تحفل به من معارف تزود الناس بالقدرة على الاستقراء والحكم .

إلا أن صاحب الرسالة فى ميدان الإعلام لابد وأن يتميز على غيره لابالكم الوافر من المعرفة فحسب ولكن بالقدرة على التأثير وامتلاك الوسيلة فالكاتب لايصل برأيه إلى القراء مالم ينشر مايكتب ، والصحفى لايدلى برأيه من غير صحيفة والمعلم مالم يجد التلاميذ لايعلم ، والمعلن من غير مستهلك لايعلن ، والواعظ لايعظ دون منبر أو محفل ، والخطيب مالم يجد مستمعًا فكأنما يصرخ فى بلقع .

والقدرة على التأثير والاستهواء مالم يتميز بها صاحب الرسالة لايؤثر ولا يستهوى وإن امتلك الوسيلة ، فالإقناع هو الغاية التى ينشدها ومالم يصل إلى الإقناع فقد انزوى من ميدان الإعلام ولا نعده من رجاله وإن توفرت له عناصر الإعلام الثلاثة كما حددها أرسطو .

والإقناع هو الميدان الذى تصول فيه سيكلوجية الإعلام . وهى سيكلوجية لها خصائصها المتميزة ، فهى ليست قاصرة على الميادين المألوفة لعلم النفس وإنما تمتد

إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم السياسة والاقتصاد ودراسات البيئة والعقائد والمذاهب الفكرية والاجتماعية ، فسيكلوجية الإعلام لاتكتفى بتشريح النفس الإنسانية ولكنها تضع الإنسان على مسرح الحياة فى امتدادها من الماضى إلى الحاضر وبكل مايحيط بها من مؤثرات يفرضها الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى بيئة لم تعد لها حدود ولكنها تمتد لتشمل العالم بأسره ، وفى هذا الإطار ينشأ الجانب الفلسفى للإعلام ومادام الإعلام رسالة إلى المجموع لتقرير حقيقة موضوعية كما هو فى ميدان المعرفة ، أو لتقرير حقيقة تستهوى الناس وتجذب إليها الرأى العام كما هو فى الدعوة أو الدعاية ، أو حتى للرمز إلى حقيقة فى قالب درامى كما هى فى المسرح والسينما ، وإن طغى عليها عنصر الإثارة والتشويق عن طريق الإمتاع فإن رسالة الإعلام لاتكتفى بالجانب الفلسفى أو النظرى لوضع قاعدة عامة ، فإن هذه القاعدة تتحول من الجانب النظرى إلى الجانب التطبيقى فى محيط ينفعل بواقعه أكثر مما ينفعل بالفلسفة والنظرية مادامت النظرية هى غاية الفلسفة ومرماها لتقرير حقيقة أو واقع معين فإذا كانت الفلسفة هى ماتعنى أولئك الذين يخططون للإعلام ويرسمون مراميه دون كافة الناس ، فإن أول مايعنيهم قياس الفعل ورد الفعل عند الناس ، أو بلغة الإعلام مدى مايتركه المحدث والحديث من أثر فى المستمعين .

وغلبت دراسة هذا الأثر على أبحاث الرواد الأوائل فى دراسة الإعلام ، فكانت دراسة « جابرييل تارد » عن الرأى العام ودراسة « أ.ف . بنتلى » للحكومة ودراسة « جراهام ولاس » للطبيعة البشرية فى السياسة فى العقد الأول من هذا القرن ، هى النواة لدراسات امتدت واتسعت حتى شملت الجانبين النظرى والتطبيقى للإعلام . فقننت له الطريقة التى يقوم عليها استقراء الرأى العام فى أمرما أوموضوع يشغله كما يجرى فى انتخابات الرئيس الأمريكى أو الانتخابات النيابية للرئاسة والبرلمان فى أوربا وغالبا ماتسفر هذه الاستقراءات عن نتائج مذهلة ،

صادقة أو كاذبة فإن أى التواء فى اللفظ أو التعبير قد يكون مضللا للرأى فلا يسفر عن واقع حقيق واقتحم الإحصاء وبنوك المعلومات والكومبيوتر الميدان فأصبحت وسائل عملية لقياس الرأى العام ولكل منها دوره فى القياس .

وعلى هذا القياس يتحدد دور الاعلام وخاصة فيما يتصل بالمسائل العامة التى تعنى الناس وتشغلهم كما يتحدد الإطار الذى تدور فيه سيكلوجية الاستهواء فيما نسميه « حرب الدعاية » فى الإعلام الدولى ونسميه « الجاذبية » فى الإعلان ، كما نسميه « حرب الإقناع » حيال التناقض الفكرى فى اتجاهات الرأى العام .

وقد استحوذت الدعاية على ميدان الإعلام فى البداية بتأثير عاملين كان لظهور الراديو والسينما تأثير كبير عليهما ، ففى خلال الثلاثينيات كان الراديو قد غمر الأسواق وأثبت وجوده وتأثيره الكبير فى ميدان الإعلام وقد سبقته السينما إلى الميدان ولكن لم يكن لها من الأثر ما أصبح للراديو من بعد فى ميدان الدعاية فقد بقيت قاصرة عنه فى المدى وفى الغاية . فلم تبلغ من السعة والانتشار مابلغه الراديو ، وظلت تجول فى ميدان الإمتاع أكثر منها فى أى ميدان آخر من ميادين الإعلام أو فصائله .

أول هذين العاملين حاجة السوق إلى الدعاية كوسيلة للإعلان عن السلعة ، وقد بدت هذه الظاهرة فى الولايات المتحدة قبل غيرها من البلدان الأوربية التى شهدت مولد الإذاعة وانتشار الراديو فى دورها حيث أخذت وكالات الإعلان تتجه إلى هذه الوسيلة الجديدة التى تقتحم المجتمع وتفرض وجودها عليه أكثر من غيرها ، كما كان لقيام الإذاعات الأمريكية على أساس تجارى بعيدا عن احتكار الدولة ما جعل للإعلان مكانته فى تمويلها .

أما العامل الثانى فكان أكثر استئثاراً بالدعاية فى أوربا منه فى أمريكا وكانت بداية الإعلام الدولى فى الإذاعات الموجهة التى استشرت فى فترة ما بين الحربين ،

حين أخذ هتلر ووزير دعايته البارع جوبلز يستغلان هذه الوسيلة الجديدة استغلالا حاذقًا فى الدعاية النازية الموجهة التى غمرت العالم وأخذت تغزو الأسماع البريطانية والفرنسية .

وقبل أن تبدأ الإذاعة النازية جولتها الحادة أخذت الإذاعة البريطانية تبث إرسالها إلى شعوب الكومنولث البريطانى عام ١٩٣٢ وبدأت إرسالها إلى الشعوب العربية عام ١٩٣٨ لمقاومة الدعاية النازية .

وكانت تلك هى البداية فى حرب الإرسال الإذاعى التى أخذت تتسع وتمتد إلى ماصارت إليه فى الوقت الحاضر ، حيث أخذ الإرسال الإذاعى فى أكثر دول العالم يبث إذاعاته بكل اللغات إلى دول العالم أجمع .

ثم كانت الحرب الثانية الملحمة التى استشرت فيها معركة الدعاية الإذاعية وكانت المعركة كما هى فى الحرب بين القوتين اللتين حملتا عبء القتال : بريطانيا من ناحية وألمانيا من الناحية الأخرى ، لعب فيها الاستهواء دوره الكبير فكان الخبر وكانت الحقيقة المذاعة ، لاتصدر قبل أن تمر على خبراء الدعاية ، ولم تكن الدعاية حتى ذلك الوقت قد تعدت أسلوبها التقليدى بالكلمة المباشرة أو الرسالة غير المباشرة عن طريق الصحف والمنشورات ولم تكن لمثل هذه الصحف والمنشورات أن تقتحم خطوط الأعداء فانفردت الإذاعة بالميدان وكانت لها صولتها خلال الحرب ، وحين تحجب السلطة الخبر عن الناس فإنهم يجدون فى الراديو جهازا لا يخضع للرقابة وإن خضع للتشويش . ولكنه بالرغم من التشويش فإنه يمسك بالناس فما من وسيلة غيره لمعرفة ما تحجبة السلطة عنهم بل إنهم يلتمسونه لمعرفة مايدور فى بلدهم مادامت السلطة تحجبه عنهم أو تصدره على هواها ، فى اليوم التالى لمعارك ٥ يونية ١٩٦٧ ، أخذ المصريون يتجهون إلى الإذاعات الخارجية حين أيقنوا أن إذاعتهم لاتصدقهم الخبر . حتى أصبحت الإذاعة المصرية حينذاك (نكتة) الرأى العام .

وكان الاستهواء العاطفى هو اللاعب الأول على مسرح الدعاية خلال الحرب فالحرب إجراء لايحكمه العقل قدر ماتحكمه العاطفة ، تلك العاطفة التى يراها برتراندرسل ماثلة فى تلك المشاعر المبهمة ، مشاعر العامة ، لاتلبث أن تلهبها حمى الحرب حتى تنطلق بأصحابها إلى القتال مؤتمرة بأوامر رجال السياسة .. تحدوهم عادات مشتركة وميول غريزية وإحساس عارم بالكبرياء القومى ، وشعور بما يقع عليهم من ضغط خارجى ويصبح للاستهواء السياسى دوره البارز فى الإعلام الداخلى وفى الدعاية لأهداف الحرب .

وقد سبقت الدعاية النازية غيرها فى الاستهواء العاطفى على أسس علمية من الدراسات السيكلوجية والإعلامية يصفها الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه « دراسة فى التاريخ الأوربى المعاصر بقوله : « واعتمد النازيون على الصحافة والراديو فى نشر الدعوة إلى النظام الجديد ، ووجدوا فى إثارة الإشاعات والأقاويل سلاحًا ماضيا لا يقل فى أثره عن فعل الكلمة المكتوبة أو الأحاديث التى ينقلها الأثير إلى كافة الأرجاء ، واستند النازيون فيما كانوا يذيعون إلى مبادئ معينة ، وصلوا إليها كما قالوا بعد دراسة سيكلوجية الجماعات والشعوب وأهمها : أن التكرار الكثير من شأنه أن يلصق فى ذهن المخاطب نوع الصورة أو الفكرة التى يريد أصحابها أن تعلق فى ذهنه وتتغلغل فى فؤاده وأن الكذب الفاضح يجد من سامعه قبولا وتصديقا ، لأن الشخص إذا اعتاد الكذب « الصغير » فى حياته اليومية ، صار لا يصدق الأكذوبة الصغيرة ، بل الأكاذيب الضخمة وحدها هى التى تترك أثرا عالقا فى نفسه ، وأن مثل الجماهير فى قدرتها على التفكير كالقطيع من الغنم الذى لا إدراك له ولا تمييز عنده » .

واستعان النازى بالصحافة فى دعايتهم بين الشعوب المغلوبة فأصدروا الصحف العديدة فى كل بلد احتلوه فأصدروا فى باريس صحيفة Pariser

وصحفا أخرى Warschauer Zeitung وفى وارسو Zeitung ومجلات عديدة فى كركاو وبلجراد وبراج وكوبنهاجن وأوسلو وكرواتيا وسلوفاكيا ، تتسق جميعا فى الطريقة وفى الأداء .

وفى الجانب الآخر بدأت الدعاية المضادة تغذيها المقاومة السرية للشعوب المقهورة فى الداخل ، وأخذت الصحف تتحايل على الرقابة بأساليب كثيرا ماكانت تثير السخرية ، فحين نشرت صحيفة بلجيكية أن خمسين طائرة أغارت على بريطانيا ولم يعد منها ست وأربعون طائرة وأنذرتها الرقابة فنشرت بعد ذلك خبرا عن غارة ألمانية أخرى . قالت فيه : « شوهدت اليوم ٣٤ قاذفة ألمانية تطير صوب إنجلترا وقد عادت منها ٤٣ طائرة إلى قواعدها سالمة » وكان نصيبها هذه المرة الإغلاق والتعطيل . وحين أغارت الطائرات البريطانية فدمرت مصنعًا فى الدنمارك يعمل لحساب الاحتلال ، منعت الرقابة الألمانية نشر الخبر على حقيقته وقالت إن الغارة قد أسفرت عن إصابة بقرة واحدة وأضافت الصحيفة الدنماركية قائلة « ومازالت البقرية تحترق » .

فإذا كان الاستهواء هو قوام الدعاية وإذا كان الاستهواء يستوحي العاطفة ، فإن العاطفة لايثيرها غير الإقناع ، وليس الإقناع يسيرًا فى جماعات تتفاوت نزعات أفرادها ، إلا أن هذه النزعات الفردية غالبا ماتتوحد أمام أمر عام يؤثر فى المجموع بصورة واحدة ، ويوحد نزعاتهم نحوه ، وفى هذه يستوحى الإقناع تلك النزعات العامة التى يتسق فى إطارها الشعور العام حيال أمر معين يجمع عليه الرأى العام ، وقد يكون هذا الأمر طارئا كفرض ضريبة جديدة مثلا فإما أجمع الرأى العام على رفض الضريبة والتصدى لها وإما رأى مصلحة فيها فتقبلها راضيا ، إلاّ أن هناك مايتصل بالضمير الاجتماعى للناس ، وليس من اليسير التصدى له مالم يكن هناك مايدين به ويتقبله راضيا .

وليس الضمير الاجتماعي للأمة أو المجموع قيمًا هلامية يصوغها الهوى والنزوات الطارئة ولكنها قيم وإن تكمن فى زوايا اللاشعور فإنها تحدد الفكر والسلوك فى الفرد وفى الجماعة وتطبع ثقافة الأمة أو المجموع بطابع مميز ، تحدوها فى الغالب نزعات معنوية كالدين والتقاليد والقيم والمأثورات أو نزعات مادية كالرفاه والمنفعة والمصلحة المشتركة مما أصبح موضوعا لدراسات الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى ، وشغل به رجال السياسة والإعلام .

وقد يتساوى فى هذا الاستهواء العاطفى والاستهواء العقلى ، والاستهواء العاطفى تحكمه الميول والرغبات الكامنة أما الاستهواء العقلى فيحكمه المنطق وإن جفا الميل والرغبة . ولكن لكل منهما مكانه وموضعه ، وإن جمع الإقناع بينهما ، فغاية كل منهما إقناع من يتجه إليه فإذا كانت العاطفة هي المثير الأول فإنها لاتبقى ولا تستمر مالم تستند إلى فكر سوى ومنطق يتقبله العقل ليصل به إلى الإقناع .

وقد حاولت الدعاية الألمانية أن تجذب الشعوب المقهورة إلى فلسفتها السياسية ووجدت من يشايعها ممن عرفوا باسم (الطابور الخامس) فأخذت تبشر بجدوى النظام الجديد وتقارن بينه وبين الأنظمة المنحلة للديمقراطيات الفاسدة مستدلة بالمنطق والبرهان والشواهد الزائفة أو الحقيقية ، ولا تعدم أن تجد من الحقائق مايعينها على تأييد تلك الشواهد إلا أن الواقع كان يكذب كل مايقولون ، فالحياة الوادعة التى يبشرون بها يكذبها مايعانونه من وقر الاحتلال النازى حين قام بتسخير النساء والمسنين وصغار السن فى الإنتاج العسكرى لمصلحة الريخ ، وحين سلب الناس أقواتهم وتركهم يتضورون جوعا وحرمهم وسائل التدفئة فى الشتاء الأوربى البارد الذى عصف بالأطفال والمسنين والمرضى وأوردهم موارد الهلاك .

وعندما يفشل الاستهواء سواء كان مصدره العاطفة أو العقل فى استمالة الرأى العام لايبقى من سبيل غير إثارة الخوف ، مما يضع الإعلام فى إطار آخر لايقوم على

استهواء الرأى العام أو استمالته ، وإنما يقوم على تخويف المجموع فلا يصدر عن رأى ولاينم عن اتجاه مخالف . وقد ينساق هذا المجموع فى ظل التوتر الذى يثيره الخوف إلى مشايعة المخيف ، فيغير من اتجاهه لتجنب الخطر القائم أو المحتمل . وإن كان لايثير التشيع ، فإن كبت الرأى العام لايعنى أنه غير موجود فإن بقى مكبوتا لا يسفر عن ذاته فإنه يبقى فى داخل كل فرد على حدة وقد يبلغ الخوف بالفرد أنه لايستطيع أن يتحدث بما يرى لأقرب الناس إليه ، بل ويطلب من أقرب الناس إليه ألا يتحدثوا فى هذا الأمر .

وهناك فرق بين الخوف والتخويف ، فالخوف انفعال ناجم عن رد فعل أو ردود أفعال للقسر والإرغام الذى يخضع له المجموع بفعل سلطة قاهرة تسيطر على الحكم وترغم الناس على الطاعة ، وهذه السلطة إما خارجية كاحتلال دولة لدولة والسيطرة على إرادتها وإما داخلية كقيام حكم ديكتاتورى يرغم المجموع على الطاعة غير آبه بإرادته .

والتخويف هو التهديد بمضرة قد تنال الفرد أو تنزل بالمجموع مالم يستجب لفعل معين ، كالتخويف من إهمال التطعيم ضد مرض معين أو التخويف من عدوان خارجى تبريرا لزيادة الاعتمادات العسكرية .

وفى كلا الحالين الإعلام يلعب دوره الأصيل فى التأثير على الرأى العام ، كالحملة الإعلامية للتحذير من شلل الأطفال مالم يحصن الأطفال بالطعم الواقى ، أو الحملة لتنظيم الأسرة مخافة الانفجار السكانى مع قلة الموارد ، وغالبا مايثمر التخويف أثره فى الاستجابة تجنبا للخطر المحتمل .

إلا أن الخوف من السلطة قد يؤدى إلى ردود أفعال متباينة ، ويختلف رد الفعل باختلاف الفعل ومصدر الفعل ، فمصدر الفعل أشد وقرًا إذا ما كان داخليا عما إذا كان خارجيا ، إذ أن السلطة الغريبة كسلطة الاحتلال أدعى إلى توتر المجموع

وإثارته مما لو كانت داخلية ، فحيث تقوم السلطة على الإرغام من الحاكم الوطنى تجد لها أشياعًا ممن يؤمنون بالحاكم وسلطانه ، أو متشيعين ممن تحدوهم المنفعة وابتغاء الخير بالتلاحم مع الحاكم ومشايعته مما يمزق إرادة المجموع فلا يجمع على اتجاه ، ويلعب الاستهواء دوره فى الخلل الذى يصيب الإرادة العامة فلا يستوى معها المجموع على اتجاه واحد وغالبا مايقوم الاستهواء على الخداع الذى تسوقه أجهزة الإعلام حين تقدم للمجموع ما يرضيه وتبعد عنه مايغضبه وغالبا مايثمر الخداع ، فالمشايعون يتحمسون لكل ما يسوقه الإعلام والمخالفون يحذرون المضرة من قول الحقيقة ، فإذا قالها أحدهم أصبح ضحية للإعلام حين تصمه أمام المجموع بالخيانة وتلصق به من الاتهام ما يشينه ولايملك لنفسه دفاعا أو ردّ مضرة .

وقد تعمد السلطة الداخلية إلى إثارة الخوف لدى المجموع باتخاذ إجراء عنيف ضد بعض المخالفين بتلفيق الاتهامات ومايترتب عليها من اعتقال ومحاكمات وتعذيب أحيانا كما كان من بعض الأنظمة الديكتاتورية مدنية أو عسكرية فى الشرق الأوسط وفى أفريقية وفى كثير من النظم الشيوعية ، والقصد من مثل هذا الإجراء إرهاب المجموع وإخراس الألسنة .

ولاتجد السلطة الخارجية ماتجده السلطة الداخلية من قدرة على الاستهواء أو جذب المشايعين حيث تتوحد الإرادة العامة على مقاومة السلطة الخارجية ، ولاتخشى من تلفيق الاتهامات . ولا يخشى الناس من وصمهم بالخيانة أو بما يشين ، والاعتقال والتعذيب مفخرة لصاحبه وليس أمام السلطة الخارجية غير القمع الذى يزيد المقاومة قوة وإصرارا . كما كانت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال وكما كانت مقاومة غاندى للانجليز وثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى .

ومع ثورة الإعلام فى نصف القرن الأخير احتلت دراسات الرأى العام مكانها الأثير الذى تحظى به فى الوقت الحاضر . وأصبح للإعلام مكانه المرموق فى تلك

الدراسات فلم يعد ملكا للبيئة أو المحيط أوقاصرًا على الاهتمامات القومية ، ولم تعد تحكمه ثقافة نوعية بعد أن اهتزت الثقافات البيئية أمام زحف حضارة عالمية غازية تفرضها الآلة بكل خصائصها السلوكية ، فسلوك راكب السيارة غير سلوك راكب الدابة ، فإذا كان راكب الدابة حرًّا فى اختيار طريقه فإن سلوك قائد السيارة يخضع لقواعد المرور ، وإذا كانت القافلة تجمع بين أناس متقاربى المشارب فإن القطار يجمع شتيتًا من الناس لايعرف بعضهم بعضًا ولاتربطهم علاقة ما غير الحشد فى عربات متعددة ، كماتفرض الكهرباء والثلاجة وأفران البوتاجاز سلوكا معينا على أصحابها فى استخدامها غير سلوكهم الأول حيال وسائل التبريد والطهى والمواقد . كما تفرضها وسائل الإعلام الحديثة فالراديو ينقل إلى الأسماع مالم يكن فى قدرة السامع أن يسمعه والتليفزيون والسينما ينقلانه إلى عالم كان بعيدا عنه ، وكل هذا قد ترك تأثيره على اتجاهات الرأى العام وماينجم عنها من سلوك الأفراد والجماعات .

واتسع مجال الدراسات الإعلامية فغز فى ميادين السياسة وأوغل فى بيداء فسيحة من الدراسات السيكلوجية التى لم تدع ميدانا فى حنايا الإنسان إلا اقتحمته وولجت آفاقا عديدة من العلوم الرياضية والاجتماعية والإنسانية على اختلافها بل وعلوم اللغة والأداء والإلقاء .. إلخ .

هذا عدا البحوث التحليلية والتجريبية والميدانية التى غدت أساسًا لقياس التأثير الإعلامى فى الأفراد والجماعات وما لوسائل الإعلام من أثر على فصائله التى يدور فى ميدانها منذ القدم وهى كما قلنا التعليم ، والدعوة والدعاية والتسلية .

فأى تغيير كان لوسائل الإعلام الحديثة فى تلك الفصائل ؟

الإعلام : الخدعة الكبرى :

حين أراد بسمارك أن يجر فرنسا إلى الحرب تحقيقا للوحدة الألمانية لم يجد سبيلا

لذلك غير إثارة الرأى العام الفرنسى لتكون فرنسا هى البادئة بالحرب وسنحت له الفرصة ، عندما رشح أحد أمراء البيت المالك البروسى لاعتلاء عرش أسبانيا . مما أغضب فرنسا . فأبلغت سفيرها أن يطلب وعدًا من ملك بروسيا ألايعتلى أحد أفراد البيت المالك البروسى عرش أسبانيا ، وكان الملك يستجم فى مدينة « ايمز » وغضب الملك وأبرق إلى بسمارك بما كان ، وهى البرقية التى عرفت « ببرقية أيمز » إذ سرب بسمارك البرقية محرفة إلى الصحف فنشرتها بما يفيد أن إهانة لحقت بسفير فرنسا وهاج الرأى العام الفرنسى ، فأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا ، ورأت ولايات الجنوب الألمانى . أن العدوان لايقع على بروسيا وحدها وإنما يقع على الشعب الألمانى جميعا فاتخذت جانب بروسيا ولم تكن من قبل راضية على زعامة بروسيا وإن كانت تخشى فى نفس الوقت أطماع نابليون الثالث ، وانتهت الحرب بهزيمة فرنسا فى معركة « سيدان » ودانت ولايات الجنوب الألمانى بالولاء لبروسيا وطلبت من نفسها الانضمام إلى الاتحاد الألمانى وتوج ملك بروسيا إمبراطورًا على ألمانيا فى قاعة المرايا بقصر فرساى .

وهكذا كان الإعلام البارع الخدعة الكبرى التى طوحت بعرش نابليون الثالث وبانتزاع ألمانيا للألزاس واللورين فى معاهدة فرانكفورت ١٨٧٢ .

وكانت الدعاية سلاحًا قويا فى يد الفاشية والنازية حتى خيل للعالم أن موسولينى يستعيد مجد الإمبراطورية الرومانية وأخذت عبارة Mari Nostrum بحرنا – أى البحر المتوسط تشيع على لسان كل إيطالى ، حتى بعد أن تعثرت إيطاليا فى حربها مع الحبشة قبيل الحرب العالمية الثانية ظل شبح الدعاية الإيطالية مخيما على الأذهان ولم يكن هناك من استطاع أن يدرك ماوراء الطنين الإعلامى من خواء .

وقد استغل هتلر سلاح الإعلام الدعائى أبرع استغلال فى بناء النازية فى نشأتها الأولى فى ألمانيا عندما استهوى الألمان إلى دعوته استهواء قام على معرفة عميقة

بالنفسية الألمانية التى هزتها هزيمة الحرب ، وبالنزعة العسكرية الكامنة لدى الألمان فأحيت عروض النازى العسكرية بقمصانهم البنية وأرديتهم العسكرية الحماس فى شعب مهزوم ينشد الثأر وكان بارعًا فى استغلال الأزمة الاقتصادية التى عصفت بالعالم فى الثلاثينيات وامتدت آثارها إلى ألمانيا بصورة مروعة قذفت بملايين العمال إلى البطالة ، براعته فى استغلال الظروف الدولية للاعلان عن قوة النازية وقدرتها فى داخل بلاده وفى خارجها حين أخذ يمزق قيود معاهدة فرساى واحدًا بعد الآخر ويعيد تسليح ألمانيا ويحمل الدول على التودد له . وأخذ يشيع فى الألمان نعرة الاستعلاء ولم تكن غريبة عليهم .

وكان الإعلام الألمانى بارعا غاية البراعة فى الدعوة للنظام الجديد الذى تنادى به النازية لسعادة العالم ، بفضل إعلامى بارع ، بل لعله أبرع رجال الإعلام فى القرن العشرين هو الدكتور جوبلز وزير دعاية هتلر ، وخدع الكثيرون فى دول عديدة فى هذا النظام النازى الذى قفز بألمانيا إلى الصدارة وقضى على البطالة بين العمال حتى أقبلوا فى بلادهم على تكوين أحزاب على غرار الحزب النازى يستوى فى هذه الدول الاستعمارية والمستعمرات ، وكانت تلك الخدعة الكبرى خدعة إعلام بارع قوى مسيطر ، فلم تعدم ألمانيا حين سيطرت على أوربا خلال الحرب أنصارا يتشيعون لها ويتعاونون معها . وحين صحا الإعلام المضاد للحلفاء خلال الحرب وصمهم بالخيانة ونعتهم «بالكويسلنجية» نسبة إلى «فيدكون كويسلنج» الضابط النرويجى الذى تشيع للنازية وأيدها فى بلاده خلال محنة الحرب وأصبح نعت «كويسلنج» دليلا على الخيانة أكثر من دلالة لفظ الخيانة على معناها وكانت سمة بارعة من سمات الدعاية المضادة .

والدعاية هى خدعة الإعلام الكبرى وظيفتها ومرماها الإقناع «تحمل – كما يقول برون – الشر والكذب ، تعمل فى أناة على تهيئة عقل الفرد أو المجموع

بما يتسنى لها من وسائل خفية للغايات التى تنشدها[1] .

وقد اتخذت الدعاية صورتها الحاضرة خلال الحرب العالمية الأولى فاخترعت الأكاذيب وحيكت الخدع السياسية وأقاصيص الفظائع لإثارة الوساوس والتقزز من العدو ، وفاقت دعاية الحلفاء دعاية الألمان حينذاك مما حمل الألمان فى الحرب الثانية على هذا القصد وفاقت دعايتهم دعاية الحلفاء وسارت مع العمليات الحربية جنبًا إلى جنب ، بل سبقت وقوع الحرب وكانت لها السيطرة على أذهان الناس فى كل صقع ومنتدى .

وأصبحت الدعاية من بعد طابع الدولة الحديثة تمدها وسائل الإعلام الحديثة بكل ماتحتاج إليه للوصول برسالتها إلى عقول الناس من أى قبيل والتأثير على مشاعرهم بما ترمى إليه من غايات ، هى فى الغالب – كما يرى « ليونارد دوب » الأستاذ بجامعة ييل فى كتابه « الرأى العام والدعاية » وضع الفرد أو المجموع فى اتجاه معين ليسلك سلوكا معينا .

والدعاية على أية صورة غلّ فى عقول الناس إقناعًا أو اقتناعًا ، « فحيث تنثر أقاويلها لتسوق الناس إلى مراميها فإنها فى عرف الناس – كما يرى دوب – شىء كريه لايقوم على حق ولا توجبه الضرورة » .

وقد تتباين الصورة إلى حدّ التناقض فى الوسيلة وإن اختلفت فى الغاية فالإقناع بتذليل الإرادة وإخضاعها بما يعرف « بغسيل المخ » وسيلة كريهة والإقناع بإثارة الجاذبية فى الإعلان التجارى بالصورة والموسيقى وسيلة ممتعة وإن لجّ كلاهما فى الكذب والادعاء وتمويه الحقيقة .

---

(١) J.A.C. Brown: The Techniques of Persuasion From Prpaganda to Brainwashng.

إلاّ أن الإقناع قد يتم دون اقتناع حين يخضع الفرد أو المجموع لمؤثرات تسلبه دقة الحكم والتقدير الصحيح فحيث يبدو العقل الواعي على ضرب من الاقتناع يبدو فى صورته الظاهرة صحيحا حتى تزول المؤثرات التى حملته على الاقتناع وتطفو المشاعر الداخلية على السطح فيدرك أن اقتناعه كان ضربا من الميز والتزوير ، فغالبا ماتكون الدعاية لشىء لايقبله العقل ، وقد تتم بوسائل غير معقولة كما كانت دعاية الكنيسة ضد نظرية كوبرنيق عن المجموعة الشمسية كما يرى برون .

وتغلب الدعاية غيرها من فصائل الإعلام فى عصرنا هذا ؛ فقد تشابكت المصالح الدولية والمحلية وتعددت المذاهب الفكرية والسياسية واتسعت التجارة وأسواق المال والمصارف واختلفت مصادر السلع ونوعيات البضائع ، ومع حرية التجارة أصبحت الدعاية للسلعة والإعلان عنها ضرورة أساسية لرواجها ، وأصبحت لها المكانة الأولى فى عالم الإعلام فاقتحمت ميدان التعليم وكان من قبل أهم فصائل الإعلام ، كما ولجت ميدان الدعوة والإمتاع أو التسلية واتخذت منها جميعا وسائل لغاياتها .

فالدعاية لنظام الحكم القائم تحمل السلطة على طبع برامج التعليم بما يساير الدعاية ويؤكدها أو على الأقل تفريغها من كل ما يتناقض معها ، فروح التعليم كما يرى « دوب » وإن كانت تساير الحقائق العلمية السائدة فى عصرٍ ما ، فإن روح الدعاية ترمى إلى طبع سلوك الناس وأهوائهم ومواقفهم بطابعها ، وإن جفت فى اتجاهاتها ووسائلها العقل والمنطق ، فقبل كوبرنيق لم تكن هناك فجوة أو تناقض بين المعرفة العلمية السائدة والمعرفة التعليمية ، فلما سادت نظرية كوبرنيق عن شكل وحركة المجموعة الشمسية وأصبحت حقيقة علمية لم ترض عنها الكنيسة ولها السلطان الزمنى والدينى ، فحجبتها عن الناس وفرضت عليها الرقابة ودعت إلى تكذيبها ، وهو ماعده دوب نوعًا من الدعاية ضد النظرية الجديدة ، فالتعاليم

الكنسية هى التى تسيطر على برامج التعليم .

فإذا كان التعليم يقوم على الواقع العلمى المجرد والأحكام المستقلة فإن الدعاية تقوم على الأحكام المسبقة والمعدة من قبل ، وإذا كان المعلم ينشد النمو الوئيد للمعرفة العلمية فإن الداعية بنشد النتائج العاجلة السريعة ، وبينما يدعو المعلم الناس إلى التفكير الحر ويعلمهم كيف يفكرون فإن الداعية يقدم لهم مايفكرون فيه .

فإذا جاء المعلم ليقوض مايقيمه الداعية . فأيهما يكون له الغلب ؟

والغلبة قطعا للنظام السياسى والاجتماعى القائم ، فإذا كان النظام الاجتماعى هو الغالب ، فإنه يحكم النظام السياسى كما هو فى عالم الديمقراطيات ، وإذا كان النظام السياسى هو الغالب فإنه يحكم النظام الاجتماعى ويسيره لأغراضه ومراميه وغالبا ماتقوم على حماية وجوده ، فالنظام الحاكم إذا قام على الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية فإن السلطة الزمنية تخضع لسلطة الدين ورجاله ، كما كانت البابوية وسلطان الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكما هو لدى أئمة الشيعة فى النظام الإسلامى ، حيث يكون للإمام المعصوم السلطان الأعلى على الرعايا وعلى جهاز الدولة .

وفى الأنظمة التى يسودها الحكم المطلق كالحكم الأبوى أو الاليجارشى فى الأنظمة القديمة وإن بقيت منها صور عديدة فى عالمنا المعاصر ، أو الحكم المذهبى كالفاشية والنازية والشيوعية التى حفل بها القرن العشرين ، أو الحكم العسكرى الذى ظهر واستشرى فى أكثر الدول النامية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وإن تخفت جميعًا وراء دعوى الديمقراطية فإنها تقوم على طابع من الاستبداد يغلب فيه النظام السياسى النظام الاجتماعى ويحكمه ويسيره لصالح النظام والطبقة الحاكمة .

وفى هذه الأنظمة تغلب الدعاية فتسيطر على وسائلها وتحكم اتجاهها الإعلامى كما تحكم نظام التعليم وبرامجه وتسيرها للتوافق مع اتجاهها الإعلامى وقد مرت مصر

بهذا الدور فى فترة حالكة من تاريخها اختفت فيها الحرية تحت وقر الاستبداد .

وقد يغلب على النظام الديمقراطى سطوة رأس المال ونفوذه ودهاء جماعات الضغط وأساليبهم ومناوراتهم ، فإن غلبت دعايتهم بمالهم من نفوذ فإن النظام التعليمى يبقى سليما ليس فى قدرتهم الاقتراب منه أو التأثير عليه ، وتسود حرية الرأى وحرية الفرد مما يصون قواعد النظام الاجتماعى ، ولكن يبقى للدعاية ميدانها الفسيح فى عالم الاستثمار والتجارة والتسويق وإن لم تخل من الاستهواء الخادع .

ويبدو خطر الإعلام المعاصر فى امتداده واتساعه ، فإذا كان للدول المتقدمة مايحميها من البلبلة ، ولا أقول الخداع ، فالخدعة قائمة فى صورة من الصور يستوى فى ذلك الدول المتقدمة والدول النامية إلا أن البلبلة الإعلامية هى من نصيب الدول النامية وحدها ، أو ما يطلق عليها الآن « دول العالم الثالث » وقد تحررت هذه الدول من ربقة الاستعمار . وكانت الخدعة الأولى التى ترددت فيها ، وكان للإعلام دور كبير فيها ، أنها ظنت ظنًّا بلغ حدّ اليقين أن استقلالها كان ثمرة كفاحها الوطنى وأنها قهرت القوى الاستعمارية وأجبرتها على الفرار ، وماعرفت أن امتداد الحضارة الغربية إليها ، وتطور الاقتصاد العالمى وحاجيات السوق والعلاقات الدولية الاقتصادية التى نمت عن قيام ماعرف « بالشركات المتعددة الجنسية » كانت جميعا العامل الأول فى رحيل الاستعمار أوبلغة أدق الاحتلال العسكرى والإدارة الاستعمارية ، فقد أدّى رحيل الاحتلال العسكرى إلى خلاص الدول الاستعمارية من نفقاته ، حتّى وإن كانت على كاهل المستعمرات ، فإن بقاء قوات الاحتلال مما يثير الإحن نحوها من جانب المواطنين ، وقد تؤدى الإحن إلى ثورات تبهظ كاهل الاحتلال عسكريا وماليا .

فإذا كانت الإدارة الاستعمارية قد زالت فقد جاء أفرادها خبراء وفنيين كطلب الدول النامية لتقود خطاها فى التنمية والتقدم ، كما أن امتداد الحضارة الغربية إليها

قد جعلها فى حاجة ملحة إلى تكنولوجيا الغرب حاجتها إلى أدوات الراحة والترفيه التى عرفتها فى اتصالها بالغرب من قبل ، وقد اتسعت هذه الأدوات فى أعقاب الحرب فلم تعد قاصرة على المنسوجات والملابس ووسائل المواصلات الحديثة كالسيارات للصفوة المتميزة والترام وقطارات السكك الحديدية بما تقتضيه مصلحة الاستعمار لنقل الخامات إلى مراكز التصدير والمنتجات الصناعية إلى أسواق الاستهلاك ولإحكام السيطرة العسكرية على البلاد.

ولم تعد أدوات الراحة والترفيه مقصورة على الصفوة بل امتدت إلى الانتلجنسيا الجديدة التى نشأت فى ظل الاستعمار امتدادها إلى كثير من افراد الطبقة الوسطى من سكان المدن بنوع خاص ، والمدن فى دول العالم الثالث هى مركز النشاط التجارى والثقافى ، وهى الميدان الذى تتلاقى فيه حضارة الشرق والغرب أو حضارة الماضى الآسنة وحضارة العالم الحديث النامية المتحركة ، فأقبلت هذه الطبقات الناشئة كبيرها وصغيرها على منتجات الغرب وأدواته كالثلاجة الكهربائية ومواقد البوتاجاز والسخانات والراديو والتلفزيون والسيارات التى لم تعد قاصرة على الصفوة بل امتدت إلى غيرها ممن يحرزونها لاستعمالهم الخاص أو ممن يلجأون إليها كوسيلة مريحة للانتقال بل أخذت هذه الشعوب تهجر غذاءها القديم إلى مواد الغذاء التى يصدرها الغرب إليها ، فحل القمح محل اليام والدخن والذرة كلما كان لهذه الدول النامية من خامات الصناعة ماتبتاع بثمنها ما تحتاجه من منتجات الحضارة أدواتها الجديدة ، فإذا صدرت طنًّا من الكاكاو استوردته حلوى بثمن يزيد أضعافًا على ماتقاضته من بيعه وإذا صدرت برميل البترول بأربعين دولارا استوردته مصنعا بألف دولار ، وهكذا فى غير ذلك من المواد الخام مما أدّى إلى انتشار المجاعة فى بلدان لاتملك من الخامات ماتصدره ، أو تملك منها ما تعجز عن استغلاله وتسويقه ، أو اكتفاء الدول الصناعية المتقدمة منها بما هو أيسر وأقرب منالا لسهولة

استغلاله أو لقربه من مراكز الاستيراد والتصدير.

فإذا كانت دول العالم الثالث فى حاجة ملحة إلى منتجات الدول المتقدمة فما حاجة الدول المتقدمة إلى الاحتلال العسكرى وإحن الاستعمار إذا كان ما تحتاجه من خامات يأتيها رضا وامتنانا.

وقد نجح إعلام الدول المتقدمة فى أن يوحى إلى دول العالم الثالث نوعًا من الكبرياء القومى، فاستكثرت من أدواته بتكوين الجيوش الوطنية وتسليحها بما تسمح لها به الدول المتقدمة وقفز معدل تجارة السلاح من صفر قبيل الحرب العالمية الثانية إلى ١٢٪ من حجم التجارة العالمية، وحملها الكبرياء القومى وقد أورى الاستعمار القديم لهيبه إلى التنافس فيما بينها وجرّها التنافس القومى إلى الإحن والعداوات فاستكثرت من السلاح وتجييش الجيوش، فالتهمت من ايراداتها ماهى فى حاجة إليه للتنمية والتقدم والرخاء.

ومازالت بلدان العالم الثالث –كما يرى كثير من خبراء التنمية وما أسفرت عنه المؤتمرات المنبثقة عن الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وتقرير البنك الدولى لعام ١٩٧٨ – محكوما عليها أن تقوم بدور المصدر البدائى للمواد الخام بأبخس الأسعار، ودور المستهلك للإنتاج الصناعى الذى تبتاعه بأغلى ثمن، مما أدّى إلى قصور بالغ فى خطط التنمية، وخلل الميزان التجارى وتراكم الديون ذات الفوائد العالية والسداد قصير الأمد.

وإذا كان الاستعمار بصوره القديمة قد زال من الوجود، فقد حل محله نوع من الاستعمار الجديد يقوم على الرضا، يسنده إعلام قوى مسيطر بارع الخداع فوكالات الأنباء الدولية التى تزود العالم بأكثر من ٨٠٪ من أخبار العالم تخضع للدول المتقدمة وتعتمد عليها وكالات الأنباء المحلية فى البلدان النامية فى حصيلتها الإخبارية، وإن كانت لاتفرد للعالم النامى غير القليل من حصيلتها الإخبارية،

هذا العالم النامى الذى يربو عدد سكانه على ثلثى سكان العالم ، فإذا أولت أخباره بعض الاهتمام فإنها تذيعها بما يتفق والاتجاه الغالب عليها . فإذا كان للصحف فى العالم النامى حرية نشرها أو التعليق عليها ، فإن هذه الحرية تتضاءل أمام الإذاعات الموجهة وأفلام السينما والعروض التلفزيونية للمسلسلات الأجنبية والأمريكية بنوع خاص ، التى تغزو العالم وتسيطر على مشاعره والدول النامية دون شك هى المستهلك الكبير لمثل هذه المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية ، والأثر الناجم عن مشاهدتها هو البلبلة التى تعصف بالمشاهدين من التقاء ثقافتين بعيدتين عن بعضهما بعدا كبيرا مما يؤدى إلى اهتزاز القيم والموروثات الحضارية والثقافية للشعوب النامية ، ويؤكد تبعيتها للدول المتقدمة . وقد لاتهمنا هذه التبعية فى عالم ينشد الوحدة والتآخى ، ولكن البلبلة التى تنجم عن التقاء ثقافتين وما يتأتى عن ذلك من تمزق فكرى وعاطفى هى الخطر الأكبر ، لاسيما وأن المنتجات السينمائية والتلفزيونية يغلب عليها الجانب الترفيهى دون الجانب الثقافى وترمى إلى الإمتاع دون المعرفة ، وتتدنى بالفكر الرفيع إلى إخراج هزيل ، وترمى إلى الإثارة التى تجلب الكسب دون إبراز المشاعر السوية الطيبة فأفلام الجريمة والعنف تحتل حيزًا كبيرا من العروض السينمائية وغدت صناعة السينما صناعة رابحة وأصبحت خامس صناعة فى الولايات المتحدة وغزت بإنتاجها العالم شرقه وغربه ، إلاّ أن تأثيرها فى الدول النامية كان أشد منه فى الدول المتقدمة حيث تتقارب النظم الاجتماعية والقيم الثقافية بين أوربا وأمريكا وتتباين إلى حد كبير بينهما وبين البلاد النامية فى آسيا وأفريقية .

ويقبل الشباب والصبية على العروض السينمائية أكثر مما يقبل عليها الشيوخ لذلك كان تأثيرها فى هذه السن الباكرة خطيرًا حيث ينزع الشباب إلى محاكاة نجوم السينما وتقليدهم من خلال ما يشاهدونه من أدوارهم وبخاصة أدوار المغامرة ، وقد

رأينا كيف أطلق الشباب فى مصر على ممثلى المغامرات قبيل الحرب العالمية الثانية لقب « الشجيع » أى الشجاع ، وكيف غدت أفلام رعاة البقر عنوانا على أمريكا ثم اتجه الشباب إلى أفلام العنف والجريمة ورقصات الديسكو.

وبالرغم من العروض السينمائية الجيدة لبعض الروايات والمسرحيات العالمية كروايات هيمنجواى ومسرحيات شكسبير فإن الغث فيها أكثر من السليم ، لعل أخطر ما فيها - كما يقول ديماس رئيس بنك التنمية الكاريبى - أنها تقوم بدور هدام فى بناء الشخصية القومية ، والتطور الاجتماعى والثقافى فى بلدان العالم الثالث ، وبخاصة فى الكاريبى وأمريكا اللاتينية بل إنها تقوم بنوع من « غسيل المخ » لنبذ مجتمعاتهم ومأثوراتهم وتقليد المجتمعات الغنية الراقية .

وقد أشار الزعيم الهندى غاندى إلى هذا التقليد الأعمى بقوله :

« لا أحب لبيتى أن تحجبه الحوائط العالية ولا لنوافذه أن تغلق »
« دون الهواء النقى .. وكم أحب أن تهب ريح الثقافات جميعًا على دارى »
« طليقة لا تعوقها سدود ، إلا أننى لا أحب منها أن تنتزع قدماى من »
« دارى ولا أرضى أن أعيش فى دور الآخرين طفيليا »
« أو متسولاً أو مستعبدًا » .

ويأتى التلفزيون ليضاعف من هذا الأثر الخطير للبلبلة الثقافية والاجتماعية فى البلدان النامية حين تطالعهم الشاشة الصغيرة بصور من الحياة بعيدة عن حياتهم وبعديد من القصص والحكايات تجذبهم إليها فتلم بهم الحيرة بين واقعهم وما تنقله إليهم هذه الشاشة من صور غريبة لاتنشد الحقيقة قدر ماتنشد الرواج عن طريق الاستهواء فيقعون فى الخدعة الكبرى خدعة الإعلام المضلل .

وللتليفزيون تأثير بالغ على الأطفال - كما يرى دونالدب . ايلى أستاذ التربية بجامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة - ولعله قد أصبح فى عالمنا هذا أول ماتتفتح

عليه عيونهم ، وهو وسيلة هامة لفيض من القصص والحكايات والأساطير التى أغنتهم عن حكايات الأمهات قبل النوم . مما حمل كثيرا من المربين على التحذير من هذا الضيف الثقيل مالم يروض ليكون كريما فى إقامته ، وليكون أداة نافعة لتعليم مثمر وقيم نافعة لاتحمل الأطفال على أجنحة الخيال الجامح الذى أدّى بطفل مصرى إلى القفز من شرفة مسكنه تقليدا لبطل فى مسلسل تلفزيونى كان يهبط من عل لينقذ أو يغيث – على قدر ما اذكر – من هو فى حاجة إليه ، وكان مصير الطفل الموت ، وكانت تلك الخدعة الاسطورية التى أودت بحياة الطفل .

وكم سمعنا عن انحرافات للشباب كانت المسلسلات التليفزيونية وحيها الأول .

ولكن الإعلام إذا كان خداعًا كبيرا فإنه من ناحية أخرى سمة على حضارة عالمية سريعة التطور ، وأداة فعالة للتقارب والتفاهم بين الشعوب ووسيلة ناجحة من وسائل التربية والتعليم وما من شك فى أن ثورة الإعلام الحديث تقود الإنسانية إلى عالم موحد .

وسائل الإعلام الحديث

الإعلام هو الكلمة والوسيلة :

الإعلام هو الكلمة تصدر من فم المتكلم إلى أذن السامع ، فإذا حلّ الرمز محل الكلمة كالنار على قمم الجبال لهداية السارى ، أو دق الطبول للإنذار ، أو الدعوة للحرب ، بين القبائل الأفريقية أو الإعلان عن وفاة فى بعض القرى المصرية ، أو الناقوس أو الأذان دعوة للصلاة ، فإن الرمز لا يكتمل إلا من خلال الكلمة ، لماذا أوقدت النار ، فقد تكون لهداية قوم منتظرين ، وإذا دق الطبل فلم الحرب ولمن ومن هو المتوفى ؟

وكان مدى الكلمة محدودة بقدرة الأذن على استقبال الصوت فقد ثبت أن الأمواج الصوتية لا نهائية يحملها الأثير إلى أبعد مداه ، مثلها فى ذلك كمثل موجات الضوء تحمل الصورة إلى كل جنبات الأرض ، وما ثورة الإعلام إلا الوليد

الشرعى لثورة التكنولوجيا أو ما يسميها ماكلوهان منجزات عصر الكهرباء ، فقد انتقلت بالكلمة إلى أقرب مدى للأذن كما انتقلت بالصورة إلى أقرب مدى للعين ، وأصبح كل ما يدور فى العالم قريبًا من الأذن والعين على السواء .

وعندما كانت الكلمة محدودةً بالقدرة على السماع ، كان الحديث وكانت الخطبة وسيلتى الإعلام فى خبر يزجى أو رأى يذاع فى مجمع أو سوق أو لقاء لأمر بين الناس . وحينما أمر محمد ﷺ بأن يجهر بما بعث من أجله ، ونزل الوحى :

(وأنذر عشيرتك الأقربين ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون)[1]

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)[2]

صعد على الصفا ، ونادى يامعشر قريش ، وسمعت قريش وأقبلت تسعى ماشأنه ، ولم تكن هناك وسيلة أخرى للبلاغ غير الكلمة يلوكها اللسان لتصل إلى أذن السامع . وكانت أسواق العرب فى الجاهلية ، والأسواق فى أثينا محفل الكلمة ومجمع الناس للسماع ، حتى احتلت المساجد والكنائس مركز الإعلام الأول فى العصور الوسطى للدعوة والوعظ والنظر فى أمور الناس .

وقد ظلت الكلمة المباشرة هي وسيلةالإعلام الأولى حتى عرف الناس الكتابة فانتقلت بالإعلام إلى مدى أبعد وأصبحت الرسالة المدونة تحمل إلى أصحابها وسيلة لإذاعة الكلمة على مدى أبعد ، فلما عبدت الطرق وانتظمها البريد إلى مسافات بعيدة كان مدى الكلمة هو البعد الذى يصل إليه البريد ، وقد استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تحكم قبضتها على ولاياتها البعيدة فى أفريقية وبلاد الغال والجزر البريطانية بما يسرت لها الطرق المعبدة التى شقتها هذه السيطرة .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٢١٤ إلى ٢١٦ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٤ .

ثم كان اختراع الطباعة فأصبح للكتاب مكانته فى العالم الأعلام ، كما أشرنا من قبل ، حتّى أفرزت المطبعة مع تقدمها وتطورها أخطر وسائل الإعلام : الصحافة والصحف .

الصحافة

من المأثورات التى تروى عن عبقرى الحرب « نابليون » أن صحفًا ثلاثا تعادينى تثير من خوفى أكثر مما تخيفنى ألف بندقية .

وقد كان للكلمة المطبوعة دورها البالغ فى نشأة القوميات الأوربية الحديثة وتحولها عن اللغة اللاتينية إلى لغاتها المحلية ، كما كان أثرها بارزًا فى الثورات الكبرى التى شهدها العصر الحديث : الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والثورة الروسية فإن الذين قاموا بها وقادوها كانوا من القراء الذين نالوا حظًّا كبيرا من المعرفة . حتى لينسب « دى توكفيل » قيام الثورة الفرنسية إلى الطبقة الجديدة من الأدباء والمحامين ، وإن رأى كارليل أن الجوع هو الذى حمل الفرنسيين على الثورة أكثر مما حملتهم عليها ترهات الفلاسفة وجدل المحامين ، فالسياسة– كما يقول لينين– لا تكون إلا حيث تكون الملايين من الجاميع وليس الآلاف من الناس ، ولن تكون تلك الملايين ما لم يكن بينها رباط فكرى واحد ، هو فى الواقع أبرز آثار الامتداد الإعلامى .

وقد جاءت الصحيفة بعد الكتاب : « لتكون – كما يرى ماكلوهان – كرسى الاعتراف العام للناس جميعا ، حيث كان الكتاب كرسى الاعتراف لفرد يتقدم برؤيا ذاتية .. وبينما يكشف الكتاب عن فكر المؤلف ومغامرته العقلية ، تكشف الصحيفة عن الرؤيا العامة لجماعة من الناس وتفاعلها معًا .

ولم تكن المطبعة وحدها هى العامل الأول فى ظهور الصحافة ، بل إن التغيير

الجذرى الذى ألمّ بالعالم فى أعقاب العصور الوسطى وظهور الدولة القومية والأسواق التجارية وامتداد التجارة إلى أسواقٍ أبعد والكشوف الجغرافية التى امتدت إلى بقاع ظلت مجهولة أمدًا طويلا ، وانتشار المصارف وبيوت المال ، وحاجة أوربا إلى محطات البريد ، كل هذا أدّى إلى ظهور هذا النوع البدائى من الصحف الذى ينشر أخبار الدولة بالإضافة إلى أخبار المال والتجارة فى أضيق ما يمكن أن تصل إليه طرق النقل والمواصلات وحدود العلاقات الاجتماعية ، واتساع التعليم الشعبى .

وظلت الصحافة فى نمو مطرد لا تقف دونه عوائق ، يمدّها العلم والاختراع بكل ما يدفعها قدمًا إلى الأمام بداية من تطور الطباعة إلى تقدم وسائل المواصلات حتى بلغت مكانتها الحاضرة ، ومازال العلم والتكنولوجيا يزودانها بالضخامة والذيوع والانتشار حتّى غدت فى الوقت الحاضر صناعة ضخمة متميزة ، لها أصولها الفنية والإدارية ، إلى جانب أصولها الفكرية من المعرفة العامة القديمة والجديدة على السواء .

والغريب أن الصحف لم تتأثر بظهور التليفزيون - كما يقول ماكلوهان - فارتفع توزيع مجلتَى « تايم » « ونيوزويك » وزادت شعبيتهما ، ولا يجد تعليلاً لذلك ، فلم تقم أى من المجلتين بحملة إعلانية لمواجهة هذا المنافس الجديد .

وليس ذلك بمستغرب كما يرى ماكلوهان ، فلا التليفزيون ولا الراديو ولا أى وسيلة أخرى من وسائل الإعلام يمكن أن تغنى عن الصحافة ، إلاّ فى النادر عندما يجىء بخبر لم تلحق به طبعات الصحف ، ومازالت النظرة إلى التليفزيون على أنه أداة للتسلية أو لتزجية أوقات الفراغ ، وقد لا يشعر الإنسان بما ينقصه ، حين يعوقه عائق من مشاهدته ، أما قارئ الصحيفة إذا ما تخلفت عن موعدها معه فإنه يحس بأن شيئًا ما ينقصه أو أنه قد حرم مما اعتاده صباح كل يوم حين يفتح عينيه على

الصحيفة بجواره ، وقد يصحبها معه إلى الحمام ، والإصباح بالصحيفة أو النوم على قراءتها مما يصبح عادة لدى المرء لا يستغنى عنها .

وللصحيفة جاذبيتها التي تفوق بها وسائل الإعلام الأخرى ، فالصحيفة تنقل إليك صورة المجتمع فى كافة ملابساته وظروفه وكل ما يدور فيه وما يعنيه ، وتقدم إليك الطريف والجديد خبرًا أو تحقيقاً أو ريبورتاجا أو مقالا يدعوك لشيء أو يكشف لك عن شيء ، أو عامودا يفسر لك أمرا من الأمور أو يدلّك على شيء قد يكون غائبا عنك أو يدلى إليك برأى ما ، ولا تهمل الصحيفة أن تمدك بما يسليك من الكلمات المتقاطعة ، أو ما يمتعك من الطرف والملح أو يهمك أو يستهويك من الإعلانات ، وتنقل إليك الصورة سواء كانت لشخص أو لحدث ، ولا تحرمك من الكاريكاتير الساخر ، وتلك المحتويات جميعا مما يعجز عنها الراديو أو التليفزيون .

وللصحافة ألوانها وميادينها العديدة ، فالجريدة اليومية غير المجلة الأسبوعية أو الشهرية أو الدوريات الفصلية ، وإذا كانت الجريدة تشدّك إلى الحياة اليومية فإن المجلات – كلٌّ فى ميدانها – تمدّك بالمعارف والمعلومات ، والتحقيقات الضافية لحدث من الأحداث لا تحتمل الجريدة الإفاضة فيه أو الإلمام بكافة نواحيه ، كما أن المجلات المتخصصة تمدك بكل جديد فيما تخصصت له من العلوم والآداب والفنون ، حتى الأطفال والمراهقين وأندية القمار والمراهنات والمسابقات الرياضية وعالم المسرح والسينما وشئون المرأة ، قد أصبحت لها مجلاتها التي تدور حول هذه المسائل وتقتصر عليها .

والصحافة هي مرآة الرأى العام ومنبر الدعاية والغول الهائل الذى يجتاح عقول الناس فتوحد بينهم أو تفرقهم شيعًا ، وهى الناطق بلسان الجماعات والهادى والمضلل البارع لأفكار الناس وأهوائهم .

وغالبًا ما تسبق صناعة الصحافة غيرها من الصناعات الكبرى فى سلم التطور ، فتفيد قبل غيرها من التقدم العلمى ومن أى اختراع جديد حتى غدت وسائل الإعلام الأخرى خادمًا ذلولاً لها ، وستبقى ما بقى المجتمع الإنسانى عملاق الإعلام الضخم الذى يحمل ألوية الرشاد أو يرعد بالدمار .

والصحافة اليومية هذا الغول النهم الذى يسابق الزمن ليلحق بالقارئ أشبه ما تكون فى سباقها بلعبة الكراسى الموسيقية ، فالسابق الأول الذى يلحق بأول الكراسى يتقدم على غيره ويسبقه إليه ، وهكذا الصحيفة لابد وأن تلحق بالقارئ قبل أن تسبقها إليه صحيفة أخرى ، وأداة السباق لديها هى سرعة الماكينة فى الانتهاء من طبع الصحيفة ، فإذا كانت تطبع على ماكينات أقل سرعة من غيرها ، فإنها تضطر للانتهاء من الطبع فى وقت معين لتلحق بالقارئ فى الوقت الذى ينتظرها فيه ونضحى ببعض الأخبار المتأخرة حفاظا على موعد صدورها ، بينما تلحق صحيفة أخرى بتلك الأخبار وتصدر فى نفس الوقت بسرعة ماكيناتها فى الانتهاء من طبعها فى وقت متأخر ؛ لذلك تعمل المؤسسات الصحفية على التزود بأحدث ماكينات الطباعة وأسرعها ليكون لها الوقت لإدراك آخر خبر ولتصدر فى الوقت المناسب لحاجة القارئ فلا تسبقها إليه صحيفة أخرى ، ويؤدى هذا السباق المرير إلى صدور الصحف اليومية فى وقت واحد تقريبا ، ويبقى لمحتوى الصحيفة دون السرعة أهميته فى إقبال القارئ أو ابتعاده عنها ، وهو ما يتوقف على مستوى التحرير وقدرة المحررين على معرفة اتجاهات القارئ وتحقيق رغبته .

ولم يعد إصدار الصحيفة اليومية عملاً فرديا يموّله شخص ما يتخذ من الصحافة حرفة ، فقد أصبح إصدار صحيفة يومية فوق جهد الفرد وقدرته المالية ، فإذا أتيحت له القدرة المالية والتمويل فإنه فى حاجة إلى مؤسسة ضخمة تقترب إلى حدٍّ كبير من العمل الاستثمارى حتى وإن كانت من صحف الرأى أو الصحف

الحزبية ، فالصحيفة لا تستطيع البقاء ما لم تعتمد على موارد ثابتة من الإعلان ، والمعلن يتوخى الذيوع والانتشار ولا يعلن إلاّ فى صحيفة ذائعة لها مكانتها وجاذبيتها لدى الجماهير ، والإعلان هو المصدر الرئيسى لسدّ نفقات إصدار الصحيفة وتحقيق نوع من العائد للمستثمر ، وقد يكون هذا العائد فى صحف الرأى والصحافة الحزبية قدرتها على الاستمرار والصدور .

وقد تعتمد الصحيفة على موارد خفية من جانب هيئات أو مؤسسات أهلية أو حكومية لا تحب أن تبدو سافرة فى الدعاية لما تنشده من أهداف ومرام لا تهم صاحب الصحيفة بقدر ما تهم أصحاب هذه الأهداف والمرامى . وكثيرًا ما تعتمد الصحيفة الحكومية أو التى تنتمى إلى الحكومة وخاصة فى البلدان النامية أو فى البلدان التى تخضع لنمط معين من الحكم كالحكم الديكتاتورى أو لأنظمة جماعية فى الحكم ، على التمويل الحكومى سواء فى صورة معونات مالية أو بتزويدها بالإعلانات الحكومية التى تستطيع أن تكفّها عن صحف وتغدقها على صحف أخرى .

وتقوم المؤسسة الصحفية على أربع إدارات لكل منها مهامها واختصاصاتها المستقلة . وهى : التحرير ، والإدارة والتوزيع ، والإعلانات ، والطباعة ، وإن بدا التحرير أقواها وأبرزها على المستوى العام ، إلاّ أن إدارة الإعلان قد تتقدمها وتتحكم فيها ، وكثيرًا ما يحتل الإعلان مساحة قد أعدت للتحرير ، بل وكثيرا ما يحذف مقال ليحتل مكانه إعلان .

وقد يؤثر ذلك على رسالة الصحافة بوصفها هديًا أصيلا للرأى العام ونافذة لثقافة العصر لتصبح فى النهاية بوقًا لقوى غالبة ، يسيطر عليها فى الدولة الرأسمالية قوى الضغط السياسى والمصالح الرأسمالية المتشابكة ، كما يسيطر عليها فى الدول ذات الحكم الجماعى اتجاهات أيديولوجية محددة وسياسة مرسومة . تخضع الرأى

العام لاتجاهاتها وتسوقه نحو الاقتناع بمراميها لا تترك له حرية القياس أو الاختبار حين تغفل الرأى الآخر بل وتحمل عليه إذا كان ثمة ما يدعو للحملة أو التوجيه ، وفى الحملة تجريح ، وفى التوجيه قد تغدو الدعاية أحيانا نوعًا من الإرغام العقلى وإن كان لا يقترب من الإقناع وإن حمل الرأى العام على رأى دون سواه يصبح حديث الصحافة ومحور ما تدعو إليه السلطة .

وكالات الأنباء :

وتعتمد الصحافة اعتمادا كبيرا على وكالات الأنباء ، وقد ظهرت الصورة البدائية الأولى لأول وكالة أنباء بعيدة عن الصحافة ، حين افتتح شارل هافاس مكتبا للأنباء فى باريس عام ١٨٢٥ لتزويد رجال الأعمال والتجارة والساسة بمايعنيهم من أخبار خارجية تتصل بأعمالهم . يبعث بها إليه مندوبون فى الخارج بالبريد ، ولم تستهو أخبار هافاس الصحف فأعرضت عنه ، ولم تكن الأخبار قد احتلت مكانتها الأثيرة فى الصحف حينذاك ، ومع اتساع التعليم الشعبى وزيادة عدد القراء ، وتشابك المصالح الدولية وتزايدها بعد الحروب النابليونية ومؤتمر فينا ، وظهور الحركات الاشتراكية المنظمة ونمو الفكر الديمقراطى ، أخذ اهتمام الناس يتزايد بما يحدث خارج بلادهم ، وبدأ اهتمام الصحف بالأخبار الخارجية ، فأخذت تقبل على مصادرها ، وكان أن حوّل هافاس مكتب الأنباء إلى وكالة هافاس للأنباء عام ١٨٣٥ ، وأخذ هو بدوره ينمى وسائل الحصول على الأخبار باستخدام الإشارات « اسيمافور » والحمام الزاجل ، وما وافى القرن التاسع عشر على منتصفه حتى كانت هناك وكالة ولف الألمانية (١٨٤٩) ، والأسوشيتدبرس الأمريكية (١٨٤٨) ورويتر الإنجليزية (١٨٥١) ، وأخذت وكالات الأنباء تحتل المكانة التى صارت إليها بعد اختراع التلغراف الكهربى . ومدّ أول كابل بحرى

بين إنجلترا وفرنسا عام ١٨٥١ ، وأول كابل عبر الأطلنطى بين أمريكا وأيرلندا عام ١٨٥٨ ، ولم تمض سنوات أخرى حتى عم الإرسال البرقى كافة أنحاء العالم عبرالبر والبحر على السواء . وسارت الخطوط البرقية محاذية للخطوط الحديدية ، وكانت بدورها وسيلة متقدمة لنقل البريد والصحف إلى الأماكن التى تمتد إليها .

وما وافى القرن العشرون حتى كان لكل بلد وكالته للأنباء ، تلقى من رعاية الدولة ما تلقاه شركات الطيران ، فخطوطها هى الشريان الذى يصلها بأقطار العالم كما أن وكالات الأنباء هو صوتها فى بلدان العالم الأخرى .

ومع ما لوكالات الأنباء من أهمية بالغة للصحف ، إلا أن أخبارها مع أهميتها وعظم الحاجة إليها لا تحتل غير جانب بسيط من الصحيفة إلى جانب الأخبار المحلية والمقالات والأبواب الأخرى المتعددة فى الصحيفة العصرية .

ويبدو أن وكالات الأنباء قد فقدت بعض أهميتها الأولى ، فلم تعد وحدها مصدر الأخبار الخارجية ، ولعلها لا تعرض الآن إلا لما يمكن أن نسميه « الخبرالبارد » ونعنى به الخبر الخالى من الإثارة ، أو الخبر المتواتر عن حدث مستمر كأخبار حركة التضامن البولندية ، أو أخبار المقاومة الأفغانية لقوات الاحتلال السوفيتية ، فإذا حدث أن شنّت القوات السوفيتية حملة للقضاء على حركة التضامن البولندية ، كما حدث عند اجتياحها لثورة المجر عام ١٩٥٦ أصبح الخبر البارد « خبرًا حاميًا » لا تغطيه وكالات الأنباء وحدها إذ ينثال مندوبو الصحف العالمية والإذاعات الصوتية والمرئية إلى مكان الحدث لتغطيته عن قرب ، كما حدث عندما امتلأت بيروت بهم عندما اجتاحت القوات الإسرائيلية بيروت الغربية للقضاء على المقاومة الفلسطينية صيف ١٩٨٢ .

وقد أدّت سرعة الانتقال التى حققها الطيران وخطوط المواصلات الجوية إلى سهولة انتقال مندوبى الصحف ومراسلى وكالات الأنباء والإذاعات الدولية والمحلية

إلى مكان الحدث فى الوقت المناسب وبأسرع ما يمكن وأصبح هؤلاء المراسلون والمندوبون وكالات أنباء متنقلة ، وإن كانت لا تغنى عن وكالات الأنباء فى نقلها للخبر البارد .

الصحافة العربية :

كانت مصر أول بلد عربى يعرف الصحافة الحديثة حين أصدرت الحملة الفرنسية صحيفتى « كوريه دى ليجيبت » و « ديكاد اجيبشين » باللغة الفرنسية ، فلما آلت مصر إلى محمد على أصدر جريدة « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ ، ومازالت تصدر كجريدة رسمية لمصر حتى الوقت الحاضر ، كما صدرت أول صحيفة عربية أهلية فى إستانبول عام ١٨٥٥ ، أصدرها رزق الله حسون الحلبى باسم « مرآة الأحوال » وتوالى إصدار الصحف والمجلات الحكومية وأبرزها « روضة المدارس »(١٨٧٠) ويديرها رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان لروضة المدارس طابعها الثقافى المتميز ، فقد كانت صحيفة ديوان المدارس ، وكانت توزع على التلاميذ مجانا ، كما كانت محفلاً لكل كتّاب العصر وعلمائه .

وشهد عام ١٨٦٧ ، ما يمكن أن نسميه ثورة صحفية كانت سمة على صحوة فكرية غلب عليها الطابع السياسى ، حين أخذت البلاد ترهص بالثورة وأخذ المصريون يتطلعون إلى تحقيق ذاتهم إلى جانب الطبقة التركية السائدة – طبقة الذوات – وهى الطبقة التى وضع محمد على بذرتها الأولى ، حين آثرها بمناصب السلطة وملكية الأرض ، فقد صدرت حينذاك جريدة « وادى النيل » أهلية أسبوعية ، سياسية ، علمية ، زراعية ، مالية ، تجارية – كما جاء فى تعريفها برسالتها – وبعدها بعامين أصدر إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » أسبوعية ، ولم يصدر منها غير عددين عطلت بعدهما بأمر

إسماعيل ، حذرًا من لهجتها وما تسببه من إثارة ، وتوالى صدور الصحف الأهلية ، فأصدر ميخائيل أفندى عبد السيد جريدة « الوطن » عام ١٨٧٧ ، كما أصدر أديب إسحق جريدة « مصر » أسبوعية فى نفس العام ، وفى العام التالى أصدر جريدة « التجارة » فى الإسكندرية ، وشارك فيها جمال الدين الأفغانى بقلمه وبقيتا حتى عام ١٨٨٠ حين عطلهما رياض باشا ، وحين عطلت جريدة وادى النيل عام ١٨٧٢ ، أصدر محمد بك أنسى بن عبد الله أفندى أبو السعود « روضة الأخبار » واستمر عبد الله أبو السعود يحرر صفحتها السياسية ، كما أصدر سليم باشا الحموى « الكوكب الشرق » عام ١٨٧٣ ، واحتجبت بعد قليل .

وفى عام ١٨٧٥ أصدر سليم وبشارة تقلا صحيفة « الأهرام » أسبوعية فى الإسكندرية ثم أصبحت يومية وبقيت تصدر حتى اليوم ، وقد انتقلت إلى القاهرة ، ويعدّ تاريخها تاريخًا لتطور الصحافة المصرية على مدى نيف وقرن من الزمان .

ومن أبرز صحف تلك الفترة من تاريخ مصر ، صحيفة « أبو نضارة » لصاحبها يعقوب صنوع صدرت عام ١٨٧٧ ، تعارض سياسة إسماعيل وتحظى بتأييد جمال الدين الأفغانى ، ذات طابع هزلى سياسى ، وكان مصيرها التعطيل ومصير صاحبها النفى من مصر ، فرحل إلى باريس ، وأخذ يصدرها بأسماء عديدة ، تحايلا على الرقابة ، فقد كانت تحمل على إسماعيل حملات شعواء ولقيت رواجًا كبيرًا ، واستمر يعقوب صنوع يصدر صحفه إلى ما بعد الاحتلال يحمل فيها عليه وينقد سياسته فى مصر .

ولقيت الصحافة من حكم توفيق كل عنت وإرهاق ، وفى عهده صدرت « الوقائع المصرية » يومية ، وتولى تحريرها الإمام محمد عبده ، وكان من كتّابها

الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ سعد زغلول « باشا » والشيخ إبراهيم الطبلاوى (بك) والشيخ سيد وفا .

وبدأت الصحافة المصرية بعد الاحتلال البريطانى ، مرحلة جديدة من تاريخها ، ورأت سلطات الاحتلال ألاّ تقف دون حرية الصحافة ، فألغت العمل بقانون المطبوعات ، وكان الإنجليز حينذاك فى أمان من هياج الخواطر بعد النكسة التى أصابت الثورة العرابية وإحساس المصريين حينذاك بالإحباط ، فلم تجد بأسًا من إفساح الحرية للصحافة وأن تتبنى صحافة تدافع عنها وتقرب ما بينها وبين المصريين ، فلما اشتدت الحركة الوطنية أحيت قانون المطبوعات القديم وعادت إلى سياسة القمع والتعطيل من جديد ، ولقيت الصحافة الوطنية فى ظلّ سياسة الوفاق على عهد جورست كل ضيق وعناء ، ومع هذه الحرية التى أفسحتها سلطات الاحتلال للصحافة ، فقد حالت دون دخول مجلة « العروة الوثقى » التى يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس إلى البلاد ، ولم تطق صبرًا على بقاء عبد الله النديم فى مصر بعد أن عاد إليها وأخذ يصدر مجلته الأسبوعية « الأستاذ » عام ١٨٩٢ ، وتعد فى الواقع أول صحيفة وطنية تصدر فى عهد الاحتلال فأمرت بنفيه من مصر فنزح إلى يافا بعد أن أغلق صحيفته وودّع قراءه فى آخر عدد من أعدادها فى يونية ١٨٩٣ .

وفى ظل هذه الحرية الوانية ، وخلو الميدان من صحافة وطنية ، هيأ الإنجليز لصحفيين لبنانيين إصدار جريدة موالية لهم ، فأصدر يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس صحيفة المقطم عام ١٨٨٨ فى القاهرة ، وظلت تصدر حتى احتجبت عام ١٩٥٢ .

وما لبثت الصحافة الوطنية أن طرقت الميدان عندما أصدر الشيخ على يوسف صحيفة « المؤيد » عام ١٨٨٩ ، العام التالى لصدور المقطم ، وحفلت صفحاتها

بمقالات سعد زغلول ، ومصطفى كامل ، ومحمد عبده ، والمنفلوطي ، وأحمد تيمور ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وقد نشرت كتابه « طبائع الاستبداد » مسلسلاً ، وكانت أول صحيفة تستورد طابعة « روتاتيف » عام ١٩٠٦ ثم كانت دعوة مصطفى كامل لمحاربة الوجود البريطانى فى مصر وكانت الصحافة بعد الخطابة منبر دعوته ، فأصدر « اللواء » عام ١٩٠٠ وإلى جانبها اللواء الإنجليزى « ستاندارد » واللواء الفرنسى « لبتندار » ، وبعد حادث طابا عام ١٩٠٦ ، صدرت « الجريدة » لمحررها أحمد لطفى السيد ، وكوّن لإصدارها شركة تمثل أعيان المصريين ومثقفيهم وما لبثت الشركة أن تحولت إلى حزب سياسى هو « حزب الأمة » كان أول حزب سياسى يقوم فى مصر بعد الاحتلال عام ١٩٠٧ .

وفى ظل الأحكام العرفية خلال الحرب العالمية الأولى احتجبت الصحف الوطنية ولم يبق فى الميدان غير الأهرام ، والمقطم ، والأهالى التى كان يحررها عبد القادر حمزة وتصدر فى الإسكندرية ، فلما انتهت الحرب وتفجرت ثورة ١٩١٩ ، صدرت الصحف الحزبية : أولها « السياسة » لسان حال حزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢ ، وفى العام التالى أصدر عبد القادر حمزة« البلاد » لتأخذ جانب الوفد ، ثم كوكب الشرق لصاحبها أحمد حافظ عوض عام ١٩٢٤ ، وفدية هى الأخرى ، حتى أصدر حزب الاتحاد الضالع مع السراى وصنيعتها صحيفة « الاتحاد » ، وعندما كون إسماعيل صدقى « حزب الشعب » إثر توليه الوزارة أصدر صحيفة « الشعب » عام ١٩٣٠ ، لسانا لحزبه ، وفى هذا العام أصدر محمد توفيق دياب صحيفته « الجهاد » وفدية ، تحمل على وزارة صدقى ، كما أصدر أحمد حسين جريدة الصرخة ناطقة باسم جماعة « مصر الفتاة » التى أعلن قيامها حينذاك وفى عام ١٩٣٣ أصدر الشيخ حسن البنا صحيفة « الإخوان المسلمون » تعبّر عن آراء جمعية الإخوان المسلمين ومبادئها .

توالى صدور الصحف الحزبية فصدرت « روز اليوسف » اليومية وفدية فى البداية ثم انقلبت على الوفد فكانت نهايتها فعادت أسبوعية كما كانت ، وبقيت تصدر حتى يومنا هذا ، كما أصدر محمد التبعى ، وكريم ثابت ، ومحمود أبو الفتح ، صحيفة المصرى عام ١٩٣٦ ، فلما استقل بها محمود أبو الفتح غدت أقوى لسان ينطق باسم حزب الوفد ، وأصدرت الهيئة السعدية عند تكوينها بعد انفصال أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى عن الوفد ، صحيفة « الدستور » عام ١٩٣٨ . وتحولت الصرخة إلى « مصر الفتاة » عندما تحولت الجماعة إلى حزب يقوم على تحريرها بجانب أحمد حسين رفيقاه فتحى رضوان ومحمد صبيح ، ولهؤلاء الثلاثة باع طويل فى ميدان الفكر والثقافة بما أصدروه من مؤلفات وكتب فضلاً عن مقالاتهم السياسية ، وللأستاذ محمد صبيح الفضل الأول فى بداية أول سلسلة من الكتب الشهرية احتذاها آخرون ، فأصدرت دار الهلال كتاب الهلال ودار المعارف « اقرأ » كتبًا شهرية تخوض فى شتى نواحى الفكر والمعرفة .

وحفلت تلك الفترة بالعديد من المجلات الثقافية كالسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى ، فضلاً عن المجلات التى اتخذت طابعًا فنيا أو سياسيا كروز اليوسف والكشكول لصاحبها سليمان فوزى ، والمصور التى تصدرها دار الهلال ، وقبل المصور كانت اللطائف المصورة تصدرها جماعة المقطم إلى جانب مجلة الأولاد التى كانت تصدر أسبوعية حينذاك واستهوت أطفال ذلك الجيل ، ومجلة الصباح التى أصدرها مصطفى القشاش ذات طابع فنى ، وكان لهذه المجلات التى صدرت فى فترة ما بين الحربين أثرها البعيد فى تهيئة الفكر الجديد وصياغته .

وفى أعقاب الحرب كانت صحف قديمة قد اختفت وظهرت صحف جديدة كان أبرزها « أخبار اليوم » للأخوين مصطفى وعلى أمين ، وقد أصدراها عام ١٩٤٤ أسبوعية ، فكانت فتحًا جديدًا فى الفن الصحفى ما لبثت أن تحولت إلى

دار صحفية كبرى تصدر الأخبار يومية وعددا آخر من المجلات مازالت تصدر عن دارها حتى اليوم ، كما أصدر ادجار جلاد « الزمان » يومية مسائية و « الجورنال ديجيبت » الفرنسية ، وكانتا قريبتين من دوائر السراى والسفارة البريطانية ، كما صدرت صحيفة الكتلة لسان حال الكتلة الوفدية التى ألفها مكرم عبيد بعد انفصاله عن الوفد ، وصحيفة « صوت الأمة » الوفدية ورأس تحريرها صبرى أبوعلم من أقطاب الوفد وزعمائه البارزين عام ١٩٤٦ ، وأصدرت الهيئة السعدية صحيفة « الأساس » عام ١٩٤٧ ، يشرف على تحريرها على أيوب أحد وزرائهم .

وبعد ثورة يولية ١٩٥٢ ، توقفت صحف كثيرة عن الصدور ، وإن ظهرت صحيفة جديدة هى « القاهرة » لصاحبها أسعد داغر ، ويراس تحريرها حافظ محمود ، ومن كتابها كان أميل الغورى ومحمد صبيح ، وبقيت تصدر حتى عام ١٩٥٩ .

وأصدرت الثورة بعض الصحف والمجلات ، منها الجمهورية والشعب ومجلة التحرير ، ولم تلق الشعب رواجا فاختفت كما اختفت مجلة التحرير ، وبقيت الجمهورية وحدها فى الميدان ، حتى صدرت قوانين يولية الاشتراكية فانتقلت ملكية الصحف جميعا إلى الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى ، واتخذت لقب « الصحف القومية » أخيرا .

ولما صدر قانون الأحزاب عام ١٩٧٧ ، وقامت الأحزاب التى سمح القانون بقيامها . أصدرت صحفا أسبوعية ، فكانت الأحرار لسان حال حزب الأحرار ، والأهالى لسان حال حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ، والشعب لسان حال حزب العمل الاشتراكى ، ورغم الإقبال عليها ، فإن مواردها تقصر عن تلبية حاجاتها .

وقد واكبت الصحافة فى البلاد العربية الأخرى فى تطورها ونموها صحافة

مصر ، فشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظهور الصحافة العربية فى ولايات الدولة العثمانية فى المشرق والمغرب العربيين على السواء ، رسمية فى البداية ثم أهلية وكان أسبقها إلى الميدان لبنان وسورية والعراق فى المشرق العربى وليبيا فى المغرب العربى ، ثم اليمن والحجاز بعد ذلك . فأصدر خليل الخورى « حديقة الأخبار » فى بيروت عام ١٨٥٨ ، وكانت أول صحيفة عربية أهلية تصدر فى الوطن العربى أجمع ، ثم أصدر بطرس البستانى « نفير سوريا » عام ١٨٦٠ ، وبعدما أصدر الوالى العثمانى عام ١٨٦٥ صحيفة رسمية باللغتين العربية والتركية دعاها « سورية » وأصدر والى حلب صحيفة « غدير الفرات » عام ١٨٦٧ ، باللغات العربية والتركية والأرمنية ثم اقتصرت على اللغتين العربية والتركية فيما بعد ، وأصبحت تحمل اسم « الفرات » ، وفى لبنان أصدر داود باشا متصرف جبل لبنان صحيفة رسمية باللغتين العربية والفرنسية ، كما أصدر مدحت باشا والى العراق صحيفة رسمية فى بغداد عام ١٨٦٩ باسم « زوراء » باللغتين العربية والتركية هى الأخرى . وشهد العقد السابع من القرن مزيدًا من الصحف اللبنانية ، كما أصدر عبد الرحمن الكواكبى عام ١٨٧٧ صحيفته « الشهباء » فى حلب ، لم تلبث طويلا حتى عطلت ونزح صاحبها إلى القاهرة لاجئًا ، وفى صنعاء اليمن صدرت جريدة « صنعاء الأسبوعية الرسمية » باللغتين العربية والتركية ، وقد عرفت الطباعة منذ عام ١٨٧٧ ، وبقيت هى المطبعة الوحيدة فى اليمن حتى وقت متأخر . وصدرت عنها صحيفة شهرية باسم الإيمان عام ١٩٢٦ . وفى ولاية الحجاز صدرت صحيفة « حجاز » الرسمية عام ١٨٨٢ عندما جاءتها أول مطبعة فى نفس العام ، وعندما أعلن الشريف حسين ثورته على الترك أصدر صحيفته « القبلة » عام ١٩١٦ لتنطق باسم الثورة واستمرت تصدر حتى عام ١٩٢٤ . وشهدت ليبيا صدور أول صحيفة باسم « طرابلس الغرب » باللغة التركية عام ١٨٦٦ وكانت تطبع على الحجر حين صدورها حتى

استوردت مطبعة الحروف عام ١٨٧٠ ، فأخذت تصدر باللغتين التركية والعربية ، واستمرت تصدر حتى عام ١٩١١ حين غزت إيطاليا البلاد ، وفى تونس صدرت « الرائد التونسى » رسمية بالعربية وحدها دون التركية ، وبعد الاحتلال الفرنسى للبلاد ، رأت سلطات الاحتلال أن تصدر صحفًا باللغة العربية لم يقدر لها النجاح حتى فكر بعض شباب تونس فى إصدار صحيفة لها طابعها الإسلامى ، فأصدروا صحيفة « الحاضرة » عام ١٨٨٨ ، وتعتبر أول محاولة وطنية لإصدار صحيفة عربية . وبقيت تصدر حتى عام ١٩١٠ ، وكان لها أثرها على الحركة الوطنية الوليدة فى تونس .

وانتعشت الصحافة العربية بعد إصدار الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ولكنها مالبثت أن تقوقعت وانتكست بعد أن آل الحكم إلى جماعة الاتحاد والترقى وبداية الحركة الطورانية التى انتهت بالقضاء على الدولة العثمانية .

ولم تعرف الجزائر الصحافة العربية إلا فى وقت متأخر حين أصدر حزب الشعب الجزائرى الذى ألفه مصالى حاج عام ١٩٣٧ صحيفة « الشعب » ، وكانت أول صحيفة عربية تصدر فى مراكش (المغرب) عام ١٨٨٩ ، ولكنها لم تستمر طويلا ، حتى صدرت صحيفة « الحق » عام ١٩١١ تدعو للجامعة الإسلامية وتأخذ جانب الألمان وتهاجم فرنسا ، وقد سبقها إلى الظهور صحيفة « لسان المغرب » عام ١٩٠٧ يعدها أهل مراكش أول صحيفة وطنية ، وكانت صحافة مراكش العربية نهبًا مقسما بين الإسبان والألمان والعثمانيين ، وما لبثت الاتجاهات الفرنسية أن سادت فى الجنوب ، والإسبانية فى الشمال ، وبقيت الصحافة العربية دون الفرنسية فى مراكش بكثر حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية وأصبح لها صحافتها التى تحارب قوى الاحتلال .

وأخذت الصحافة العربية تشق طريقها صعدًا إلى الأمام فى فترة ما بين الحربين

وإن بقيت تعانى من القمع والتعطيل حتى تحررت من كل سلطان أجنبى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وإن ناشتها تيارات أخرى داخلية وخارجية جديدة مازالت تخضع لها .

من العين إلى الأذن :

كانت الصحافة آخر صورة للإعلام المكتوب ، وإن لم تستطع أن تزيح الكتاب عن مكانته فبقى أقوى وسيلة إعلامية احتلت مكانتها على مدى قرون منذ عرف الإنسان الكتابة ليسجل بها معارفه على الحجر وأوراق الشجر وجلود الحيوان وغير ذلك من الرقاق ، حتى عرف الورق فنسخ معارفه وعلومه وآثاره الفكرية على صفحاته ، ثم عرف المطبعة مع تطور صناعة الورق وانتشار التعليم الشعبى فدخل الكتاب كل بيت وامتدّ إلى كل يد ليصبح وسيلة الإعلام للتعليم والدعوة والمذاهب الفكرية والسياسية العديدة التى ينضج العقل والفكر بها على مدى الزمن ، فلما اقتحمت الصحافة الميدان لم تستطع أن تقصى الكتاب عن ميدانه فى حقل التعليم والدعوة ، وإن استأثرت دونه بالدعاية والخبر الممتع المثير أو الخبر الذى يعلم الناس بعضهم ببعض ويصل بين المجتمعات الدولية والإنسانية فى شتى أنحاء المعمورة ، مع ألوان من الثقافة والمعرفة التى لا تثقل على الإنسان العادى ، فليست الصحافة الفكرية والعلمية والفنية والأدبية إلا امتدادا للكتاب تفسح فى رسالته وتمدها إلى أكبر عدد من الناس ما لا يستطيع الكتاب فى تفرده واستقلاله بموضوع معين أن يفيه حقه من التعدد أو القدرة على الانتشار كالمجلة الفكرية أو العلمية الجامعة .

إلا أن الكتاب وإن بقيت له مكانته الأثيرة فى حقل التعليم والمعرفة ، ليس منافسًا للصحافة ولا تستطيع الصحافة بدورها أن تزيحه عن مكانه أو أن تغنى عنه ، وسيبقى الكتاب ما بقى خزانة للعلم والمعرفة .

ويرى البعض أن الأبجدية الصوتية تحاول أن تزيح الأبجدية البصرية عن مكانها ، وبعبارة أقرب إلى الأفهام أن المسموع يحل محل المقروء فى استيعاب المعرفة ونقلها ، وأن عقلية العصر وإدراكه تنصت أكثر مما تبصر ، وهو قول فيه كثير من المبالغة ، وإلا لما خرجت الصحف بخطب الزعماء والقادة وبياناتهم بعد أن تذيعها فى وقتها الوسائل الصوتية من إذاعة وتليفزيون ، فإن القدرة على الاستيعاب الفكرى للمقروء أقوى وأشدّ منها للمسموع ، فالقارئ يستطيع أن يراجع العبارة مثنى وثلاث حتى يعيها ، بينما المسموع لا يدع له مثل هذه الفرصة ، فيضطر إلى قراءتها عندما تصدر مكتوبة إذا كان ممن يعنيه أمرها .

وقد يكتفى الإنسان بالمسموع فى أشياء معينة ، ولكنه لا يستغنى عن القراءة فى أشياء أخرى مما يحتاج إلى فكر وإمعان وقدرة واتية على الاستيعاب ، لذلك كان الكتاب وسيبقى وسيلة التعليم الأولى ، وإن استأثرت المسجلات بالأذن فى الخطب والمواعظ والندوات والحوار ، وإذا كان المعلم يلقى دروسه سماعًا على الطلاب ، فإن الطلاب لا يكتفون بالسماع ، إما للمراجعة والتثبت وإما لزيادة المعرفة فيما لا يطرقه المعلم ، وقد يكتفى بالإشارة إليه وإلى مراجعه العديدة فى مصادرها المكتوبة . فالكتاب يتميز بالفهرسة وبيان صفحات المعلومة المنشودة مما لا يتسنى للتسجيلات الصوتية ، وقد يضع الباحث أمامه مجموعة المصادر التى يرجع إليها من الكتب والمؤلفات العديدة ، ويستطيع أن يصل إلى الصفحات التى يبتغيها أيسر مما يدير شريط التسجيل ليصل إليها .

وكان للأبجدية الصوتية مكانها قديما ، وكل ما انتهت إليه ثورة الإعلام الحديث فيها أنها صانتها وأبقت عليها وأفسحت من دائرة المستمعين إليها ، كما أفسحت المطبعة من دائرة القراء ويسرت اقتناء الكتاب . وقد يمضى الزمن طويلا لتحتل الأبجدية الصوتية مكان الأبجدية البصرية ، وما أظن ذلك يحدث

أبدًا مادامت المعرفة الفكرية والعلمية تحتاج إلى أناة ومراجعة ما كتب من قبل ليصح القياس والمقارنة عند الاستشهاد والمناقشة ، وكل ما تتميز به الأبجدية الصوتية فى حاضرها عنها فى ماضيها ، أنها فى الماضى ما كانت لتبقى ما لم تكتب قبل الإلقاء أو بعد السماع ، وتنتهى بذلك إلى الأبجدية البصرية ، أما اليوم فإنها تسجل بالصوت ، أو بالصوت والصورة معًا ، وامتد بقاؤها الصوتى كبقائها البصرى وأصبحت الأبجدية الصوتية بل والمرئية الصوتية عن طريق الفيديو منافسًا خطيرًا للأبجدية البصرية ، وإن كان ذلك لا يؤثر – كما أعتقد – على مكانة الكتاب ، وسيبقى الكتاب متعة العقل والفكر والقراءة المسترخية قبيل النوم أو القراءة الجادة عند البحث والاستقراء . وأداة التعليم فى المدرسة والجامعة .

وقد بدأت الأداة السمعية خادمًا للصحافة ثم أصبحت منافسًا خطيرا لها . ففى البداية كان التلغراف فى صورته البدائية الأولى هو صلة البعيد بالقريب ، وحل محل الحمام الزاجل الذى استخدمه هافاس فى نقل الأخبار من لندن إلى باريس فى سبع ساعات ، ومن بروكسل إلى باريس فى أربع ساعات . وكانت بداية استخدامه للتلغراف الكهربى عام ١٨٤٥ على خط باريس – روان ، وكلما اتسعت دائرة الإرسال البرقى وامتدت كلما كان زادًا للصحافة وقوّة لها ، وتواكبت المخترعات الثلاثة : البرق والتليفون السلكى ثم اللاسلكى ، وامتداد الخطوط الحديدية لتكتمل بها قوة الصحافة وانتشارها .

الراديو :

وبقيت للأبجدية البصرية مكانتها الوطيدة ، حتى أطل عليها المذياع فأصبح وسيلة للإعلام تخطّت حدود الزمان والمكان ، لا تقف دون حدود ولا يعوقها عن الامتداد إلا قوة الموجة التى تحكمها ، مما حمل إعلاميًا كمرشال ماكلوهان على

الادعاء بأن الوسيلة هي الرسالة ، ملقيًا بمضمون الرسالة وراء ظهره ، فليست الرسالة – كما يقول – هي العامل المؤثر وإنما الأثر الأكبر كله للوسيلة بما حققته من تقدم مذهل ، فالانتقال من المخطوطة إلى المطبوعة وما أفرزته المطبعة من هذا الكم الهائل من الكتب فى تعددها واتساقها قد طبع الفكر بالامتداد ، والتوافق المنطقى والسياق المطرد ، وما كان لهذا الطابع من أثر على العلم الحديث وما أفرزه من بيروقراطية بقدر ما نجم عنه من ضياع الإحساس الأساسى بالاتساق مع عالم الصوت والرائحة واللمس ، على عكس ما كان حين ظهرت وسائل الإعلام الكهربية فحررت الإنسان من ثقافة المطبوع ، وغذته بنوع الخبرة وزودته بنمط من الإعلام العريض المبرقش – أكثر منه ممتدا – والواقع الحى – أكثر منه واقعًا مطردا – هذا الإعلام الذى يغوص فى الأسماع ونحسه ملموسا – أكثر مما يقف على رؤيا البصر وحدها ، فالكهرباء – كما يقول – قد زودتنا بوسيلة غدت سياجًا قويا للإحساس بالألفة لدى الأفراد والشعوب بدلاً من العزلة والانطواء . وأصبح الحلم حقيقة .

وقد يبدو مارشال ماكلوهان على حق فيما يقول ، ولكنه غالى أكثر مما يوحى به الواقع فى أثر الوسيلة التكنولوجية الحديثة وقدمها على المحتوى الذى تتضمنه الرسالة ، فى قدرتها على التغيير الاجتماعى وما يتألفه من صور سياسية واقتصادية وثقافية بل وقدرتها على التأثير فى الحواس على حساب حواس أخرى ، فالمطبوع قد جذبنا إليه وحوّل أبصارنا عن أسماعنا ، ثم جاء المذياع فجذب الآذان إليه مرة أخرى ، وجاء التليفزيون ليشيع فينا قوة الإحساس بالسمع والرؤيا الملموسة ، ولم يلق ماكلوهان بالاً إلى عوامل أخرى سيبقى أثرها ممتدًا وقائما ، طالما اختلفت الثقافات وتباينت الشعوب حتى وإن أصبح العالم – كما يقول – « قرية صغيرة » . . وطالما ظلّ لكل إنسان طبيعته التى تميزه على غيره تميز بصمات الأصابع ، وإن بقى

للمؤثرات العامة قوتها وفعاليتها . فهذه المؤثرات العامة هى التى تخضع وحدها ، دون الطبيعة الخاصة للإنسان ودون طبيعة التراث الثقافى للبيئة ، لتكنولوجيا الإعلام الحديثة ، أو الوسيلة ، كما يدعوها ماكلوهان .

وكان الراديو أول صور الإعلام الصوتى للتكنولوجيا الحديثة حين بدأ بثّه لأول مرة مع بداية العشرينيات فى بعض الولايات الأمريكية . ولم ينتصف العقد حتى عمّت محطات الإذاعة عديدًا من بلدان العالم ، وعرفها العالم العربى فى أخريات العقد على نفس المستوى الخاص الذى بدأته فى الولايات المتحدة الأمريكية أول بلد يقتحم هذا الميدان حين بدأ مهندس أمريكى بإنشاء محطة إذاعة بسيطة خاصة فى بنسلفانيا ، فأنشئت فى مصر وفى الجزائر والمغرب فى العشرينيات الأخيرة محطات إذاعة خاصة ما لبثت أن خضعت لإشراف الدولة وتنظيمها .

ولكن الراديو بقى قطعة فجّة من الأثاث المنزلى إلى جوار الحاكى قاصرًا عن الحركة يسعى المستمع إلى مكانه حتى ظهر الترانزستور فأنقذه من المصير الذى لحق بالحاكى وغدا رفيقًا للإنسان فى حلّه وترحاله ، وقد تبقى له مكانته العتيدة تلك طالما بقى التليفزيون حبيس غرفة المعيشة أو غرفة النوم ، ففى الولايات المتحدة وهى بلد يهيم بالإحصاء والاستقراء واستطلاع الرأى زادت مبيعات الراديو عام ١٩٧٤ عنها عام ١٩٥٢ خمسة أضعاف ، ففى عام ١٩٥٢ بيع أحد عشر مليون راديو وفى عام ١٩٧٤ بيع أربعة وخمسون مليونا ، وإن قيل إن التلفزيون طرد الراديو من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم والمكتب والسيارة ، وأصبح رفيقًا للإنسان فى كل مكان ، فالراديو ليس وسيلة للترفيه فحسب ، ولكنه وسيلة للثقافة والمتاع العقلى وهو طوع أمرك ينقلك من مكان إلى آخر ويوافيك بأخبار العالم حال وقوعها ويسبق الصحافة فى هذا المضمار . ومازال هو السابق بالخبر إلى الدنيا جميعًا فى الوقت الحاضر ، والسمة البارزة على التطور المذهل فى عالم الاتصال وبدأ الإعلام الصوتى

يستعيد مكانته مرة أخرى وبقوة مذهلة بعد ان ازاحته عنها المطبعة والكلمة المكتوبة ، وإن بقى إلى جوارها لا يزحزحها عن مكانها بعد أن أخذت الصحافة مكانها الوطيد فى عالم أصبحت الصحيفة فيه خبز القارئ أو قدح الشاى فى الصباح ، وبقى الراديو والصحيفة وكأنهما على وفاق فى السيطرة على عين الإنسان وأذنه ولكن الراديو بعد ظهور الترانزستور قد استأثر بعالم بقيت الصحيفة عاجزة دونه ، ذلك العالم النائى فى أعماق الريف وفى المناطق التى تشيع فيها الأمية وخاصة فى البلاد النامية .

ولئن كان البرق والمسرة قد استحوذا على سمع الإنسان إلا أنهما كانا أعظم عون للصحافة فى تطورها السريع وفى انسياحها على العالم . ولكنهما بقيا عاجزين عن الوفاء بحاجات الإنسان السريعة والعديدة قاصرين على الرسالة الخاصة والخبر المنقول حينما يوجدان ، ففى سبتمبر عام ١٩٠١ كان نائب الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت يمارس رياضة تسلق الجبال فى منطقة نائية حين جاءته برقية تفيد أن الرئيس الأمريكى « وليم ماكنلى » قد ساءت حالته منذ أطلق عليه الرصاص قبل ذلك بأسبوع فى مدينة بافلو ، وكان تيودور روزفلت على مسافة عشرة أميال من أقرب مكان يجد فيه جوادًا يحمله إلى أقرب محطة للقطار حيث عرف تفاصيل الخبر ، وما أن وصل بعد سفر ليل شاق حتى كان الرئيس قد مات ، وأصبح روزفلت رئيسا للولايات المتحدة ، ولم تعلم أمريكا بالخبر إلا عن طريق الصحف نهار ذلك اليوم وليلة ، وبعد ذلك بنيف وستين عاما . أطلق الرصاص على الرئيس « جون كينيدى » وفى غضون ثلاثين دقيقة من إطلاق الرصاص كان ٧٥٪ من المواطنين الأمريكيين قد عرفوا الخبر ، وفى غضون ساعة كان العالم كله قد عرفه بفضل الراديو .

ويكتب اثنان من أساتذة الإعلام ، هما « وليم ل . ريفرز ، وولبر شرام »

يصفان ذلك التقدم المذهل فى وسائل الإعلام فيقولان :

« ترى ماذا كان يقول الناس قبل قرن من الزمان ، لو أن زيدًا من الناس
« قال لهم ، بأنهم فى القريب العاجل سيتاح لهم شراء صحيفة ببضع ،
« سنتات تزوده بأخبار تنقلها إليها وكالات أنباء مزوّدة بأحدث »
« وسائل الاتصال ، ومراسلون ينتشرون فى أهم مدن العالم تصلهم »
« الأخبار ويرسلونها إلى صحفهم فى دقائق ، وماذا كان يقوله هؤلاء »
« الناس قبل خمسين عاما ، لو أن قائلا قال لهم إنه سيكون لدى كل واحد
« صندوق صغير لا يكلف كثيرًا يسمع أو يرى من خلاله أوبرامتروبوليتان »
« والألعاب الأولمبية ، واجتماعات الأمم المتحدة ، والحرب فى آسيا ،
والمرشحين لرئاسة الدولة ؟ » .

لم تعد الكلمة تقال وجهًا لوجه ، ولم تعد بين فرد ومريديه فى حديث أو خطبة أو موعظة ، ولم تعد مطبوعة تقرأ فى وقت الفراغ أو للدراسة ، ولكنها أصبحت كلمة إلى حشد متباين من الجنسين من الكبار والصغار ومن المريدين والمعارضين ومن الأميين والمتعلمين ، ومن المثقفين وقليلى الثقافة ولا يستطيع المستقبل أن يحتج أو يعترض ، ولا يعلم المرسل بدوره من يخاطب ، ولعله لا يعرف أى حشد يخاطب وإن أدرك أن الناس جميعًا طوع صوته فغالبًا ما يستمعونه راضين أو نافرين ونادرًا مايوقفون الوسيلة دون صوته كما يلقون بالصحيفة بعد أن يأخذوا منها ما يريدون .

والميزة التى يتميز بها الراديو على غيره من تكنولوجيا الإعلام هو السرعة البالغة فى الاتصال حتى غدا فوريًا يتم للحظته ، كما أنه عبر نطاق الحشد الإقليمى إلى الحشد العالمى ، وجعل من العالم « قرية صغيرة » كما يقول مارشال ماكلوهان وإن بقى لكل فرد فيها مزاجه وطبيعته .

ويدين الراديو بمكانته إلى عامل لاسلكى شاب يدعى « دافيد سارنوف »

ذاعت شهرته عندما التقط إشارة عن اصطدام الباخرة « تيتانك » بجبل ثلج طاف عام ١٩١٢ . ففي المذكرة التي تقدم بها إلى رؤسائه في شركة ماركوني الأمريكية عام ١٩١٦ : يقول : « إنه يضع نصب عينيه خطة لتطوير الإذاعة تجعل من الراديو قطعة من الأثاث المنزلي » وتحدث عن الإذاعة كوسيلة لنقل المحاضرات والأخبار والموسيقى ووصف المباريات الرياضية والأحداث الهامة ، ولم يكن هناك من يصدق ما يرهص به خبراء اللاسلكي من تنظيم وتكبير الإشارات الإلكترونية وتيسير نقل الصوت حتى كان يوم ٢٠ يناير ١٩١٠ حين أذاع الراديو صوت مغني التينور الذائع الصيت » أنريكو كاروزو » من دار أوبرا متروبوليتان في نيويورك » حتى أنشأت شركة وستنجهاوس أول محطة إذاعة استهلت عملها في ٢ نوفبر ١٩٢٠ بإذاعة نتائج انتخابات « وارين ح . هاردنج » رئيسًا للولايات المتحدة ، وبدأت إرسالها بعد ذلك وفقًا لبرنامج منتظم . وبدأت الحكومة الاتحادية تصدر تراخيص للإذاعة وكانت الأغاني والإعلانات التجارية هي الحصيلة الأولى ، وما حل عام ١٩٣٠ حتى أصبح الراديو أبرز معالم الحياة الأمريكية حتى أنه في سنوات الكساد – كما يقول مؤرخ الإعلام « إريك بارنو » ظفر بحب لا يكاد يصدق « فالأسر التي أصابتها أزمة الكارثة المالية فباعت ثلاجتها الخشبية وأسرة البيت وأثاثه بقيت تحتفظ بالراديو باعتباره الصلة الوحيدة التي تربطهم بعالم يعيشون فيه » .

وقد أصبح الراديو سيد الأبجدية الصوتية دون منازع وقد أعاد لها سلطانها بعد أن ثلمتها الأبجدية البصرية أو الكلمة المطبوعة ، فإذا كان الكتاب بعد ذيوع الطباعة وانتشارها قد غدا رفيق الإنسان في حجرة الدراسة وأنيسه في السفر وإلفه في فراش نومه وعون التلميذ في استذكار دروسه فقد أزاحه الراديو عن مكانه بل وغدا ينافسه كأداة للتعليم ويكاد يحتل ميدان محو الأمية والترشيد الفني والثقافي في الأماكن النائية من الريف القاصي والأماكن المعزولة التي تعوزها وسائل التعليم .

الحديثة وتفتقر إلى المدرسة .

وجذب الراديو الأسماع إليه بما يقدمه لحاجة كل مستمع خبرا يعنيه أو يشغله أو نوعا من المعرفة الجديدة وأكثر ما يجذبه إلى المستمع ما يقدمه له من بواعث الترويح والاسترخاء ، وإلى هذا كله فهو رفيق مريح لا يثقل على صاحبه ينطق بحساب ويصمت حين يريد له الصمت ، ولا يضنيه بحير ولا يشغله عن عمله .

وبقدر ما يصدق الراديو فى رفقته للإنسان بقدر ما يجذب الإنسان إليه ، فإذا خانه انصرف عنه ، ويقدم الراديو آيات ولائه بكل ما يملك من قدرة وجاذبية على امتلاك مشاعر صاحبه ، كالزوج لا تكتفى بالتزين لزوجها ، وإنما تقدم له كل ما يمتعه ويريحه عقلا وبدنا وإلا انصرف عنها إلى ما يريحه خارج الدار ، والصدق آية الوفاء ، فكلما ساق الخبر صادقًا ، التصق به صاحبه ووثق به فالخبر الصادق هو وثيقة الزواج بين الإذاعة وزبائنها ، وكثيرا ما ينصرف المستمع عن إذاعته المحلية ليسمع الخبر صادقا من إذاعة أجنبية ، أو ليسمع ما تقوله إذاعة عدو ، والخبر الصادق أقوى سبل الدعاية إذ أنه يجذب المستمع إليه ليبقى أذنه معه عند التعليق على الخبر « فالواقعة – كما يقول الصحفى الإنجليزى الكبير « س . ب . سكوت » – مقدسة والرأى حر » . وحين كانت بريطانيا تمر بالعسير من أيامها خلال الحرب العالمية الثانية ، وتواجه الهزائم فى كل مكان أمام قوات ألمانيا الضاربة ، لم يكن تشرشل يحجم عن بيان الحقيقة ، ولكنه فى تعليقه كان يوحى بالأمل فى نصر أكيد ، والخبر الكاذب أو المحرف سرعان ما يسفر عن مينه وتحيّفه على الحقيقة ، فيفقد ثقة المستمع فى مصدره وإن صدق فى خبر آخر . وتلتزم هيئة الإذاعة البريطانية – كما نعرف وكما يقول أستاذنا طيب الذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة رائد المدرسة الإعلامية الحديثة فى مصر – بصدق الخبر ، فيقول إنها « تميز تمييزًا واضحًا بين الخبر فى ذاته من ناحية ، والتعليق من ناحية ثانية ، فأما الخبر فإنها

تحرص على نشره بدون تحريف ، وأما التعليق فإنها تمارس فيه كل حريتها ، وتبني عليه كل ما تريد أن تبنيه من النتائج ؛ لذلك ينظر الإنجليز إلى الإذاعة البريطانية على أنها برلمان مستقل بذاته عن البرلمان الإنجليزى المعروف ، والبرلمان فى بلاد الإنجليز هو المكان المقدس لمناقشة القضايا السياسية وغير السياسية ، والإذاعة البريطانية فى نظر الإنجليز تستطيع أن تناقش البرلمان الإنجليزى فى جميع الحالات . .

ولما كان الخبر الصادق حقًّا من حقوق الإنسان يحول دونه أى تشويش على إذاعة معينة ، فقد نصّت المادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، الصادر عن الأمم المتحدة على أن « لكل شخص الحق فى حرية الرأى وحرية التعبير ، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل ، واستقصاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون التقيد بالحدود الجغرافية . .

وعلى عكس الإذاعة البريطانية تلتزم الإذاعة السوفيتية بالغاية دون الوسيلة فليس الخبر الصادق هو الذى يعنيها ، ولكنه الخبر وإن كان مختلقًا الذى يؤيد اتجاهاتها السياسية وفلسفتها الجماعية فتحجب الخبر الصادق وتذيع خبرًا مضللاً وتلحّ عليه وتكرره ليبدو صادقا .

وتختلف الإذاعة الإسرائيلية عن غيرها من الإذاعات العالمية بقدر ما يختلف الإطار الشاذ الذى تقوم عليه دولة إسرائيل عن غيرها من دول العالم ، فالدولة الإسرائيلية تقوم على نبوءة كاذبة محرفة ، يعبر عنها « هـ . ج . ويلز » فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » بقوله : « كان اليهود يؤمنون بأن الله رب العالم أجمع رب برٍّ وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر عقد لأجلهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم ، يتعهد فيها بأن يرتفع بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض »

وتلك هي عقدة اليهود الباقية من تراثهم الباطل المشتت ، وهي العقدة التي تخضع لها دعايتهم كما تخضع لها سياستهم ، دون أن يسفروا صراحة عنها في أساليبهم ، فلكثرة ما عصف بهم على مدى تاريخهم . لا يفصحون عن الأمل إلا عندما يكون واقعًا ، فهم يطلبون وطنًا قوميا يجمع شتاتهم ولا يرضون به بديلا عن فلسطين ، فيشيعون بين ذويهم « من مشى على أرض فلسطين بضعة أقدام خصه الله بمكان في الجنة » ويقولون لهم « أولى بك أن تعيش في فلسطين من أن تسكن قصرًا منيفًا في بلد بعيد » ثم يتحسسون حاجة غيرهم من الدول الكبرى ومصالحها فيتكيفون معها ويشايعونها ، ويستجدون الرأى العام العالمي باختراع أكذوبة العداء للسامية وليسوا من الساميين ويعرفون أن العالم لا يهمه البحث عن أصولهم التاريخية ، ويبدعون أعظم خدعة في القرن العشرين عندما يدعون أن النازى أحرقوا ستة ملايين منهم في غرف الغاز وأنهم كانوا يصنعون من جلودهم « أباجورات الإضاءة » ووجدوا من يميل إلى تأييد هذه الأكاذيب من الحلفاء قبل عام ١٩٤٥ وبعده ، تبريرًا لما ارتكبوه من فظائع في ألمانيا في الدور الأخير للحرب وفي أعقابها ، ولمحاكمات نورمبرج التي تعد أول انتهاك للقانون الدولي في التاريخ ، ولابتزاز الحكومة الألمانية في صورة تعويضات عما لحق باليهود خلال حكم النازى ، مستندين « إلى التأييد - اللامنطقي - لإسرائيل من الولايات المتحدة » -كما يقول « ا . ر . بوتز » في كتابه « خدعة القرن العشرين[1] » وهو كتاب تتجاوز صفحاته الخمسمائة يكشف فيه عن زيف الدعاية الإسرائيلية في ذلك . حيث كانت الولايات المتحدة هي المبدع والمحرك الحقيقي لمحاكمات نورمبرج ، فلما بهتت الصورة ، وظهر في الولايات المتحدة زيف تلك الأكاذيب ، قامت إسرائيل باختطاف أيخمان ومحاكمته في إسرائيل عام ١٩٦٠ وتلت ذلك بحملة إعلامية

(١) A.R. Butz: The Hoax of the Twentieth Century, 1975.

أحيت فيها أقاصيص بشاعات النازى الكاذبة ، وماكان النازى وأعداؤهم من الحلفاء إلا سواء فى تلك البشاعات التى بدت دليلاً بيِّنًا على انهيار القيم الحضارية فى الغرب بطرفيه الشرقى والغربى على السواء . والراديو والكتاب إلى جانب الصحافة الموالية أبرز وسائل الإعلام الإسرائيلية تتفوق على الإعلام العربى بالمكر والخديعة والتضليل فى استهواء الرأى العام العالمى ، فتارة هى واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط ، وتارة هى الحفيظ على الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة وأخرى أنها تنشد السلام والحياة الآمنة بين قوم يعادونها ، وأنها تقيم دولة فى بقعة مقفره لتعمرها وتحييها ، وأبواقها عالية ودعاتها منظمون ، ونفوذها فى الدول البروتستانتية قديم .

وقد صدر فى أعقاب اختطاف أيخمان ومحاكمته فى إسرائيل عديد من الكتب تحيى من جديد ذكرى اضطهاد النازى لليهود ومحاولة تفريغ أوربا منهم ، فصدر كتاب « رول هيلبيرج » القضاء على يهود أوربا – عام ١٩٦١ ، وكتاب « جيرالد ريتلينجر » – الحل النهائى الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ ، وكتاب « نورااليفين » – الإبادة – عام ١٩٦٨ ، وكتاب « لوسى س . دافيد ودفس » – الحرب ضد اليهود ١٩٣٣ – ١٩٤٥ [1] – ومازالت مؤلفات دعاة الصهيونية تلح على ذلك .

أما الإذاعة الإسرائيلية فهى إذاعة مرنة تتصيد الأحداث وتتكيف مع المواقف المتاحة فى أوقات مناسبة ، تخضع خضوعًا تاما لاتجاهات السياسة الإسرائيلية الجارية دون أن تغفل مراميها البعيدة وهى السيطرة على العالم العربى بل والشرق الأوسط . وهى أخطر جهاز إعلامى على العرب ، فإذاكانت تسوق الخبر الصادق فإنها تغلفه بما يحقق مراميها .

---

(١) ا . و . باتز : خدعة القرن العشرين وقد قامت هيئة الاستعلامات المصرية بترجمته إلى العربية فى طبعة محدودة .

وسيبقى الراديو سلطان الإعلام المتوج يخاطب الناس بما يحبّون وبما يكرهون. يسوق الحقيقة والأكذوبة ويعلى من القيم ويزرى بها وينصح ويخدع. يصبحك ويماسيك وهو الرفيق الدائم فى كل مكان.

والأذن والعين معًا :

حين ظهرت السينما الصامتة لم يكن الراديو قد ظهر إلى الوجود وكانت الكلمة المطبوعة هى سلطان الإعلام الطاغى، وأتيح للصحف والمجلات أن تستأثر وحدها بفصائل الإعلام الأربع : التعليم، والدعوة، والدعاية، والإمتاع. وأصبحت زاد القارئ فيما ينشده من تلك الميادين. وإن بقى للكتاب هيله وهيلمانه، ولكنه بقى قاصرًا فى امتداده وانتشاره عن امتداد الصحف وانتشارها. وأزاحت الأبجدية البصرية أبجدية الصوت عن مكانها المرموق ولم يبق لها وجود إلا فى المحافل والندوات والمدارس والجامعات ودور الوعظ والإرشاد.

وهاقد تحركت الصور ولكنها كانت أشباحًا صامتة وإن لعبت بألباب الجماهير فجذبتهم إليها «وأصابتهم بالذهول - كما يقول إدوار واكين[1]. فكان الجالسون فى الصفوف الاولى يستديرون جزعًا من بعض المناظر، أما أجيال السينما فقد رأتها سحرًا مسلما به» وإن كان «سحرًا - كما يرى المخرج أنجمار برجمان - يقوم على خداع البصر»

وبدأت السينما وئيدة الخطى، وإن سبقت غيرها من تكنولوجيا الإعلام السمعية والمرئية الحديثة، إذ ظهر أول عرض للصور المتحركة عام ١٨٩٥، قبل ظهور الراديو بنيف وعقدين من الزمان وقبل ظهور التلفزيون بخمسة عقود،

---

(١) Edward Wakin : Communicatisns : an Intoroduction to Media.

وما لبثت العروض السينمائية أن اجتاحت العالم أجمع بعد أول عرض لها فى باريس بقليل . وحتى قيام الحرب العالمية الأولى كانت باريس مركز الإنتاج السينمائى الرائج حتى غلبتها أمريكا وغدت هوليوود سيدة الإنتاج السينمائى فى العالم وأطاح الفيلم الأمريكى بغيره من الأفلام الأخرى فانزوت فى بلادها إلاّ القليل منها الذى وجد له مكانا فى سوق المنافسة الأمريكية ، وجذبت هوليوود إليها كبار النجوم والمخرجين والمصورين من أوربا ، ولم تستطع أن تنافسها فى ميدان الإنتاج فى فترة ما بين الحربين بلد آخر بالرغم من تقدم صناعة السينما فى الكثير منها .

ثم ظهرت السينما الناطقة . فجمعت بذلك بين أبجدية الصوت وأبجدية البصر وبقدر ما نالت الحرب العالمية الثانية من صناعة السينما فى أوربا كما حدث فى الحرب الأولى ، فإنها كانت زادًا لصناعة السينما الأمريكية ، إذ جمعت القوات المسلحة الأمريكية العديد من المصورين والمخبرين السينمائيين بين صفوفها كأداة إعلامية عن الحرب الدائرة خارج بلادها ، فإن الكثير من دور العرض فى العالم لم تتأثر بظروف الحرب وغدت ميدانا طيبا لدعاية الحلفاء ، كما أخذت الحكومة الأمريكية فى تدريب هؤلاء المصورين والمخبرين المجندين لمواجهة حياتهم المدنية الجديدة بعد تسريحهم من القوات المسلحة فكانوا مددًا طيبا لإنتاج هوليوود فى ميادين جديدة اقتحمت ميدان السينما بإنتاج الأفلام التعليمية والثقافية والعلمية والإخبارية[1] . وأصبحت أداة إعلامية تتسع لكل فصائل الإعلام ، فهى وعاء لبعث الماضى وسجل للحاضر ، وهى صورة ناطقة تواكب الأحداث فى تطورها ولا تقف عند حدث فى ساعته كأخبار التلفزيون ، وهى ملهاة ومسلاة للكثيرين فى عزلة قاعة العرض المظلمة . ينسابون فيها مع مشاعرهم وأحاسيسهم وحدهم .

وقد استطاعت الأفلام التاريخية أن تصور لنا الماضى كما كان على حقيقته حيث

---

(١) The american Cinema: Edited by Donald E. Staples. 1975.

يلعب البحث التاريخى دوره - كما يرى ماكلوهان - فى إعداد الديكورات والملابس ليدركها أى طفل كأيسر ما يدركها البالغ سواء بسواء . كما استطاعت الأفلام التى تصور رواية قديمة كرواية « مرتفعات وذرنج » أو « روميو وجولييت » لشكسبير ، أو « الحرب والسلام » لتولستوى أو « حادث قتل فى الكاتدرائية » لمؤلفها « ت . س اليوت » أن تبعث الماضى فى واقعه ويرى « ت . س . إليوث » أن إعداد روايته للسينما لم يكن قاصرًا على تجهيز ملابس - مثلا - ترجع لنفس الفترة ، بل عدتها « بسبب الدقة البالغة لعدسة الكاميرا ، إلى الطريقة التى كانت تنسج بها تلك الملابس فى القرن الثانى عشر » وهو ما يعجز عنه المسرح والتلفزيون كما يرى ماكلوهان .

ولعل قدرة السينما على تصوير الواقع هى التى صانتها من غزو التلفزيون ، وعجزه عن إزاحتها عن مكانتها الوطيدة كأداة إعلامية لها جاذبيتها الخاصة . « فقد حملها على تقديم ما يعجز التلفزيون عن تقديمه ، أو ما لم يسبق له تقديمه - كما يرى إدوارد واكين - حتى أصبحت الكثرة الساحقة من جيل الشباب الذى نشأ مع التليفزيون . هم الكثرة بين رواد السينما . ففى السبعينيات كان ثلاثة أخماس رواد السينما فى أمريكا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثانية عشرة والثلاثين »

ومازالت دور السينما فى كافة أنحاء العالم حافلة بروادها ، وازداد عددهم أكثر مما كانوا من قبل ، فإذا كان التلفزيون يمسك بكبار السن فإنه قد عجز عن أن يمسك بالشباب إليه . فالشباب أميل إلى الحركة والانطلاق خارج دورهم ، ويجدون فى دور السينما ما يحقق لهم بغيتهم .

التلفزيون :

وجاء هذا الصندوق الصغير المسمى بالتلفزيون وتعنى الصورة القريبة ليحتل

مكانه المزعج والمريح معًا فى دنيا الإعلام الحديث . فساد الذعر عالم الإنتاج السينمائى . وقيل إن الراديو قد عفى عليه الزمان . وما حدث أن التلفزيون لم يستطع أن يزيح أيهما عن مكانه ، وبقى مكملاً لها . ولعله قد حثهما على الكثير من النشاط وبعث فيهما حيوية التغيير والمنافسة . ولم يأخذ من الصحيفة والكتاب شيئًا . فقد وسعتهم أمزجة الناس واهتماماتهم جميعًا .

وبدأ التلفزيون خطواته الحثيثة فى بداية الأربعينيات . وكان فرانكلين روز فلت أول رئيس أمريكى يظهر على شاشته . ولم يبدأ إرساله الواسع إلاَّ فى الخمسينيات فارتفع عدد أجهزة الاستقبال فى الولايات المتحدة إلى خمسة عشر مليون جهاز أوائل الخمسينيات ولم يكن قد جاوز نصف المليون أوائل الأربعينيات وفى عام ١٩٥٣ ظهرت الشاشة الملونة . وماوافى عام ١٩٧٠ حتى عمت أجهزة الاستقبال ٩٥٪ من البيوت الأمريكية . وكان الإرسال التلفزيونى قد عمَّ أكثر بلدان العالم .

وقد ثبت أن أية وسيلة إعلامية قذفت بها إلينا التكنولوجيا الجديدة لم تقض على ما قبلها فقد ظل التلفزيون عاجزًا عن الإطاحة بالسينما ، فالتلفزيون أشبه بعين تشكو قصر النظر . فلا يبصر غير الأشياء القريبة ، بينما السينما تبصر عن بعد ، وتتسع آفاق الرؤية أمامها فتلمّ بالمناظر الكبيرة المتسعة التى تضيع على شاشة التلفزيون فتعجز عن احتوائها أو إبرازها .

وإذا كان التلفزيون — قد أزاح الراديو عن غرفة المعيشة — كما يقول « سدنى هين » فى كتابه الجامع « إذاعة أمريكا » فقد قذف به « إلى المطبخ وإلى غرفة النوم والمكتب والسيارة . ورفيقًا بصاحب كل إنسان فى تجواله من غرفة إلى غرفة فى داره ، وحيثما ينطلق فى شوارع المدينة ، أو يمضى فى رحلة »

وقد نقول إن هذه الأجهزة الجديدة قد أخذت بمبدأ « تقسيم العمل » الذى يدين به رجال الاقتصاد . فعرفت كل أداة ميدانها لا تنافس فيه الأخرى . فحين

أقبل الناس عام ١٩٢١ على ابتياع أجهزة الراديو لتستمع إلى وصف مباراة الملاكمة على بطولة العالم بين دمبسى وكار بنتييه » فى نيوجرسى ، فإنها ماكانت تلقى بالاً إليه فى وصف مباريات محمد على كلاى . وإنما تدع إلى الشاشة الصغيرة التى تنقل إليها واقع المباريات كما يراها الذين يشاهدونها حول الحلقة . وما كان الراديو بقادر على أن يقدم لسامعه ما قدمه التلفزيون لمشاهديه أصيل يوم الجمعة ٢٢ حتى يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ لحادث اغتيال الرئيس جون كنيدى وتشييع جنازته ، ففى هذين اليومين تسمرت أمريكا جميعًا أمام شاشات التلفزيون حتى أن شبكات التلفزيون قد أوقفت كل برامج التسلية والإعلانات لتتابع هذا الحدث الكبير مما كلفها خسارة ثلاثين مليون دولار من الإعلانات بالإضافة إلى عشرة ملايين دولار أنفقتها لتغطية الحادث تغطية إخبارية شاملة . كما كان للتلفزيون دوره فى تغطية تحقيقات « وترجيت » التى أذيعت على الهواء مباشرة . وشدت إليها أنظار مائة مليون أمريكى . فمشاهدة الخبر أكثر جاذبية من سماعه .

إلا أن ميادين العمل تبدو واحدة لها جميعا إلا أن لكل منها فى نفس الميدان مايتفوق به على الآخر ، فالخبر المشاهد أكثر جاذبية من الخبر المسموع إلاّ أن الخبر المشاهد قد لا يغطى كل جوانب الحدث ولا يلم به فى الغالب إلا بعد أن يقع ويستوى تفصيله على لسان المذيع التلفزيونى أو مذيع الراديو . إلا أن الراديو يوافى بالخبر أينما يكون المستمع ، والمسرحية المرئية أكثر جاذبية من المسرحية المسموعة . وحينما يفتقد المستمع الرؤية لا يبقى غير الاستماع وشىء خير من لا شىء . وقد يبدو سماع الموسيقى على موجات الإذاعة أقرب إلى إثارة الإحساس والمتاع الذهنى من رؤية الفرقة تعزفها على الشاشة الصغيرة . وهى أكثر إمتاعًا على الشاشة الكبيرة ، شاشة السينما ، منها على شاشة التلفزيون ، فالصورة بحجمها على شاشة السينما أقرب الى الواقع منها على شاشة التلفزيون ، وإن فاقها الراديو حين يفسح للخيال مجال التذوق .

وقد قيل إن ظهور السينما سيقضى على المسرح ، ولكن ما حدث أن المسرح بقى يحتل مكانته كما كان من قبل وعجزت السينما عن النيل منه ، كما قيل إن ظهور التلفزيون سيقضى على السينما إلا أن رواد السينما قد ازداد عددهم عما كان من قبل .

وإذا كان للعرض السينمائى أوقاته ، وإذا كان للمسرح هو الآخر مراسيمه . فإن التلفزيون لا يفضلها فى ذلك ، إلا أنه على خلافها يقدم كل يوم جديدًا ، فالتمثيلية التى يقدمها التلفزيون فى سهرته لا يقدمها فى سهرة اليوم التالى ، ويستطيع التلفزيون أن يقدم مسلسلات متتابعة ، ولا تستطيع السينما أن تلجأ إلى ذلك حتى لا يهجرها روادها . فالتلفزيون عشير الإنسان وأنيسه فى غرفة المعيشة ، أما السينما فهى بمنأى عنه يسعى إليها ولا تسعى إليه . وقد يستغرق المسلسل التلفزيونى فى عرضه ساعات تمتد أياما ، أما الفيلم السينمائى فإنه يلتزم بوقت محدد وعرض واحد .

وعندما ظهر التلفزيون – كما قلنا – واجهت السينما اعصب فترة فى تاريخها . كما قيل يومها « أن الوسائل الأخرى من الصحيفة اليومية إلى دار السينما فى ركن الشارع . ومن الراديو على حامله ، إلى الكتب على رفوفها تواجه نهايتها ، وثارت انتقادات لاذعة ، من قبيل أن التلفزيون طرق فى عامين أبواب الطبقة الوسطى من الناس ، بينما أن الراديو لم يصل إليهم إلا بعد ربع قرن . وقال « نورمان كازنز » – محرر صحيفة ستردای رفيو : « إن المسلسلات الكاريكاتورية فى التلفزيون رديئة ومفزعة . وإنها تتصدر عروض التلفزيون فتجنح بالصغار وتسىء سلوكهم[1] »

إلا أن السينما سرعان ماواجهت المشكلة ، فنزعت جلدها القديم ، ووضعت جلدًا جديدًا لا يناله التلفزيون ، « أو أكرهها – كما يقول إدوار واكين – على تقديم ما لا يستطيع التلفزيون تقديمه . أو ما لم يسبق له تقديمه » ولم تصل إلى غايتها

---

(1) Edward Wakni : Communications : an Intoroduction to Media.

إلا بعد محاولات مريرة واجهت فيها الفشل والنجاح معًا ، ولعلها استوحت أسباب نجاحها مما حققته الأفلام الإيطالية من نجاح عندما طرقت موضوعات تمس اهتمامات العالم الجديد ، عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بمشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما أفرزته تلك المشكلات من عنف وتطرف يسود واقع الحياة القائمة ، فلم تعد مغامرات الضرب القديم ورعاة البقر والهنود الحمر والخيل والبنادق والبرارى الواسعة تثير الجمهور أو تحرك أحاسيسه بقدر ما أصبحت تثير السخرية والضحك . وعندما أخذت السينما الإيطالية بقدراتها المحدودة تجذب إليها الناس بما تقدمه من أفلام تمسّ واقع الحياة . أيقظت السينما الأمريكية على هذا الواقع الجديد الذى يمس مشاعر الناس ويلمس أحاسيسهم مما يفرزه العالم المعاصر من أحداث .

وليس للتلفزيون هذا الغول النهم لملئ ساعات الإرسال ما يميز به بين الغث والثمين . وما على المشاهد إلا أن يدير مفتاحه على البرنامج الذى يستهويه . أما السينما فإن عليها أن تقدم الثمين دائمًا وإلا أقفل شباك التذاكر أبوابه .

ومما يؤثر عن الممثل والمخرج السينمائى المعروف « أورسون ويلز » قوله عن التلفزيون : « هذا التلفزيون إننى أكرهه كما أكره الغول السودانى . إلا أننى لا أكف عن تناول الفول السودانى » فالتلفزيون رفيق مزعج يملى على إرادته ولكنه يترك لصاحبه الحرية فى أن يعامله كما يشاء . يقبله أو يركله ، وفى الحالين يعرف أنه لا يستغنى عنه ، ويعرف أنه يملى إرادته ولا يملى عليه .

ويوشك التلفزيون أن يسخر أجهزة الإعلام الأخرى لخدمته ، ولعله يزيحها عن مكانها كما أزاح الراديو الحاكى واحتل مكانه فى البيت ، فالصحيفة تجرى وراءه وتذيع برامجه وتعلن عنها ، وإن عجز عن التغلب عليها ، ولكنه يوشك أن يغتال الراديو ويطغى على السينما ، فقد أتاحت له الأقمار الصناعية أن ينافس الراديو فى

المدى والبعد . ليجعل من الكرة الارضية بل ومن أجواز الفضاء داخل مدى الرؤية . فالمشاهد يستطيع أن يتابع براجمه فى أى بلد يريد ، فيرى مباراة كأس العالم فى كرة القدم تذاع من البرازيل مثلاً وهو فى مصر أو فى أى بلد آخر ، كما يرى حفل تنصيب رئيس الولايات المتحدة ، أو مهرجانا فى استراليا أو تايلاند . أو عرضًا للمنوعات يذاع فى أى بلد .

ومع ظهور تلفزيون صغير الحجم يدار بالبطارية أصبح من اليسير أن يحمله الإنسان فى سيارته أو فى أى مكان يريد ، ولعل هذه الميزة التى استأثر بها الترانزستور وجعلت من الراديو رفيقًا للإنسان فى حلّه وترحاله توشك أن تنتقل إلى التلفزيون .

وجاء اختراع الفيديو المثير ليضيف ميزة جديدة للتلفزيون لاتهدد مسجلات الصوت فحسب ، ولكنها تشكل خطرًا على السينما ذاتها بعد أن أصبح قادرًا على نقل إرساله إلى شاشة بعرض الحائط ، كما أتاح لزبونه القدرة على تسجيل برنامج يريد أن يراه فى وقت آخر غير وقت الإرسال . ومع استخدام آلة ضبط الوقت يستطيع الزبون أن يسجل البرنامج وهو بعيد عنه أو مستغرقًا فى نومه ليراه فى الوقت الذى يرتضيه .

ولكنه مع ذلك يقف عاجزًا أمام الكتاب وأمام الصحيفة ، ولا نظن أنه يستطيع أن ينالها بسوء . فمازال الكتاب هو السباق إلى عالم المعرفة وهو الحفيظ عليها . ومازالت الصحيفة الوعاء الكبير لكل ما يطلبه الإنسان يمر على عناوينها فى لحظات ليختار منها ما يشاء بأسرع مما يمكن للتلفزيون أو الراديو أن يعرضاه فى نفس الامتداد الزمنى .

خاتمة

لئن أراد مارشال ماكلوهان بكتابه « فهم وسائل الاتصال » وقد صدر فى منتصف الستينيات ، أن يقرر أن « الوسيلة هى الرسالة » فإنه يعنى أن الوسيلة ، وهى وسيلة يزودها العصر الإلكترونى بكل ما لها من قدرة وسلطان ، تخلق بيئة جديدة تبرز من خلال البيئة القديمة ، بيئة تسيطر على عقل الإنسان ومدركاته ليحياها ملمًّا بها عارفًا بخوافيها . فتكنولوجيا الاتصال الكهربى قد جعلت ، كما يقول : « من العالم قرية صغيرة .. فالسرعة التى « جمعت بين الوظائف السياسية والاجتماعية وجعلتها كلاًّ واحدًا ، قد ضاعفت من إحساس الإنسان بالمسئولية إلى حد كبير ، وأدت إلى التغير فى موقف الزنوج والمراهقين وغيرهم من الجماعات الأخرى ، فلم يعد هناك من يستطيع أن يكبح جماحهم ، أو يحد من تجمعهم بالمعنى السياسى ، إنهم يشاركوننا حياتنا كما نشاركهم حياتهم فى الوقت الحاضر ، وذلك كله بفضل وسائل الاتصال الكهربية .. كما أن التطلع إلى ماهو كلى ، والتعاطف والإدراك العميق الواعى ، الذى يسود عالمنا ، هو نتاج طبيعى لتكنولوجيا الكهرباء » .

« فالوسيلة » بقدر ما تحدثه من تغير فى أنماط الحياة وعلاقات الأفراد والجماعات وطريقة تفكيرهم هى « الرسالة » وهى المحتوى الذى تؤثر به الوسيلة على طبيعة الأشياء فما من وسيلة جديدة إلا وتؤدى إلى تغيير جديد .

وقد نتفق مع ماكلوهان أو نختلف معه فى شروحه ، وتبريراته إلا أننا لانستطيع إلا أن نسلم بأن تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد خلقت عالما جديدا ، لعل أصدق ماقاله أنها جعلت من العالم « قرية صغيرة » .

فالتكنولوجيا – إذا كانت كما يقول – قد غذتنا بوسائل جديدة لنقل المعرفة ، أو هى ترجمة لها بطريقة جديدة ، فإن أعظم ماقدمته هو امتداد المعرفة وشيوعها ، إلا أن هذا الامتداد وإن حفل بالكم والتنوع ، فإن أعظم ماقدمه هو التماثل . فقد تقاربت الثقافات العامة إلى حدّ بعيد ، وإن بقى لكل ثقافة محلية إطارها الخاص ، وإن هذا الإطار الخاص يجد من تكنولوجيا الإعلام الحديثة زادا لقوته واستمراره . إلا إنه ما يلبث أن يسلم للتيار الغالب فى ثقافة العصر ومادامت ثقافة العصر من نتاج الانقلاب الصناعى ، فإن الانقلاب الصناعى قد أدى إلى مايعرف بالثورة الصناعية ، وهى ثورة – كما رأى – تناولت سلوك الناس وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما أدت إلى نشأة المدن الكبيرة والحشود العمالية فى المصانع ، والمذاهب الفكرية الجديدة ، وثورة القوميات ، وموجة الاستعمار التى قذفت بالدول الصناعية إلى ما وراء البحار وإلى عالم لم يطرقه الانقلاب الصناعى ، عالم بدا متخلفًا أمام القهر الصناعى . فإن تكنولوجيا الإعلام والاتصال الكهربى قد أخذت تغذيه بقوى جديدة تشيع التماثل بين ألوان البشر وتعلى من شأن الإنسان فى ذاته وفى علاقاته بالآخرين ، وتطيح بالعنصرية والتعصب القومى ، وتبدع نظمًا اقتصادية وسياسية جديدة ، وقوامًا اجتماعيًا لعالم كبير يتقارب فى تفكيره ، ومن ثم فى وعيه الثقافى مايؤدى فى النهاية إلى نزعة عالمية يراها المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » بادرة لقيام حكومة عالمية .

وقد يبدو أمل توينبى بعيدًا ، ولكنه محقق على وجه التأكيد ، فقد أصبح العالم داخل بوتقة صغيرة تصهره وتحوله إلى شىء جديد ، هذه البوتقة هى القدرة الإعلامية الهائلة فى الوقت الحاضر التى تشيع التماثل والانسجام ، وإن كانت ميدانًا فى الوقت الحاضر للحرب الباردة ولصراع الأفكار والمذاهب .

إلا أن هذه الحرب الباردة تنذر بشر مستطير إذا ما تحولت إلى حرب حامية

وتحمل قادة الدول أو القوتين الكبيرتين على التفكير فى تحاشى هذا الموقف المدمر باختراع مايعرف بالتعايش السلمى أو الحد من الأسلحة النووية ، إلا أن الإدراك الإنسانى للخطر القادم هو الأمل الوحيد لقهر قوى الدمار والشر ، وغلبة نزعة الخير والسلام العام . والحرب الباردة حرب إعلامية بالدرجة الأولى ، ولكنها تحمل فى ثناياها نبرة السلام كما تحاول أن تطبع العالم برؤيا معينة لصالح أى الفريقين ، وتغذى الوعى الإنسانى العالمى بالإدراك المستنير لجدوى التماثل والانسجام .

فالثورة الإعلامية التى قذفت بها تكنولوجيا الإعلام المعاصر إلى مانسميه « التدفق الحر » للإعلام المباشر ، يوشك أن يودى بالثقافات القومية وخاصة فى البلاد النامية التى تكتسحها الثورة الصناعية بكل آثارها الفكرية والسلوكية فى الوقت الحاضر بأسرع مما كان فى أى وقت مضى .

فالإرسال الدولى أو العالمى الذى تغذيه الأقمار الصناعية بالسعة والامتداد ، أعظم زاد للتدفق الحر لألوان المعرفة الجديدة التى تطبع ثقافة العصر بالتماثل والانسجام . ولكنها تخلق فى الشعوب النامية نوعًا من البلبلة والقلق بين ماهو قديم قائم وماهو جديد طارئ ، كما تخلق نوعا من الشك والحذر فيما يقدمه العالم المتقدم من بيانات ومعلومات ، فحينما كانت الطباعة تعيد بناء الماضى فى الشعوب النامية كانت المطبعة لا تنقل إليها إلا مايقع عليه اختبارها من ثقافة العالم المتقدم ، بينما اقتحم الإرسال التليفزيونى عن طريق الأقمار الصناعية حياتها ، وقدم إليها مالا تستطيع منعه أو منع تدفقه ، وطالما كان التدفق الحر للمعلومات قائمًا على سلامة الاختيار والموضوعية فإنه يلقى آذانًا صاغية ثم إن هذا التدفق الحر قد يستهوى الراغبين فى التحديث كما يستهدى الطرق والوسائل التى يقوم عليها التحديث ،

وطالما كانت الشعوب النامية تنشد التقدم ، فإنها لاتلبث أن تستسلم لكل مايغذى ثقافتها القديمة بصور ثقافية جديدة تغذى ثقافتها القديمة أو تنميها أو

تفوقها . فما لاريب فيه أن المنجزات التكنولوجية الأخرى التى اقتحمت حياة الأفراد كالسيارة والطرق وأنظمة المرور وتسللت إلى المنازل كالثلاجة الكهربائية والسخان وموقد الغاز وجهاز التكييف ، قد خلقت أنماطًا ثقافية جديدة تتكيف معها وتعززها . والإنسان بطبعه يميل إلى كل مايريحه ويخفف عنه متاعب حياته ، فلا يستطيع أن يرفض أو ينبذ ماتقدمه له تكنولوجيا العصر من وسائل الراحة ، وإن شابه الحذر مما يمسّ تقاليده وقيمه وتراثه الثقافى الباقى ، إلا أنه يكتشف فى النهاية أن الآلة قد غيرت الكثير من سلوكياته ، وللتدفق الحر للمعلومات التى يقدمها الإعلام الخارجى أو الدولى مايحمله على التفاهم معها ليتقبلها فى النهاية ، وقد يبقى الكثير من العادات القديمة قائمًا ، ولكنها فى الغالب عادات قد تتصل بالمظهر دون الجوهر ، فهذا الشرقى الذى يغشى لندن أو نيويورك أو موسكو أو برلين أو باريس بردائه الشرقى الأخاذ ، لايرفض الاندماج فى حياة تلك المدن التى يؤمها ، وإن غدا لباسه الشرقى وحيًا لمودة جديدة يبتكرها مصمم الأزياء .

والتكنولوجيا تفرض وجودها على إنسان العصر ، فى نفس الوقت الذى يغذيه التدفق الإعلامى من عالم بعيد بثقافة جديدة تدين بنمط عالمى متماثل فسيح .

ويرى « د . ليرنر »[1] أن : « المتمسكين بالتقاليد القديمة هم فى العادة من غير المتعلمين ، بينما العصريون هم فى العادة من سكان المدن المتعلمين ، الذين يرون فى الإعلام الخارجى مصدر معلوماتهم الأساسى » وكثيرا مانرى فى بلادنا من يدير مفتاح الراديو إلى إرسال خارجى ليستمع إلى خبر تغفله وسائل الإعلام الداخلى .

ويؤمن كثير من المفكرين أن التدفق الحر للإعلام الخارجى يؤدى إلى التماثل

---

(١) Learner. D.: The Passing of Traditional Society: Modernising the Middle East. Glencoe, Illinois, 1958.

الثقافى ، وينصح « إيثيل بول » [1] الدول النامية بحرية الاتصال الخارجى مع أحسن المصادر المتاحة للمعلومات من أى مكان فى العالم .... فكلما تدفقت المعلومات حرة من غير قيد اتسع المجال أمامها للتعلم ، وإن كان ذلك سيؤدى من ناحية أخرى – كما ترى – إلى نوع من التناقص الثقافى طالما بقيت الكثرة من أبنائها تعانى أوضار الأمية ، وإن قيل إن التلفزيون والراديو قناتان للمعرفة تخففان من أثر أمية القراءة .

ولعل المثل الإيرانى خير شاهد على هذا التناقض ، فقد غزت الدولة بخطًا واسعة وسريعة نحو التحديث ، وزودها البترول بالقدرة الاقتصادية على إدخال النموذج الغربى على حياة إيران الاجتماعية بأسرع مما يمكن أن يستوعبه ، أو يتمثله المجتمع الإيرانى بأعرافه الإسلامية العريقة ، فكان التناقض البالغ بين نظام غربى حديث فى التعليم والاقتصاد والقانون ونظام إيرانى جامد ، يراه البعض قد تحيف على روح الإسلام ، ويراه آخرون أنه يمضى متوائمًا معه ، ولعل العيب فى تحديث ايران خلال العقود الثلاثة الماضية ، أنه فصل بين ماضيه الإسلامى وحاضره تمامًا . وكان الانتقال أقوى مما يمكن أن يتقبله عقل مازال يعيش فى ماضيه ، وعندما أراد شاه إيران قبل سقوطه أن يحيى عظمة إيران نزع إلى إحياء مجد إمبراطورية قورش دون تراثها الإسلامى الذى عاشته طوال أربعة عشر قرنًا . فاحتفل بعرش الطاووس وأضفى عليه الكثير من الأبهة والجلال ، قبل أن تتمثل ايران روح العصر ورحابة التدين الإسلامى ، فكانت تلك الردة التى أطاحت بعرشه ، فبينما كان الإعلام الإيرانى مقيدًا باتجاهات الحكم منكرا لأى رأى آخر يحول بينه وبين إبداء رأيه ، لجأ المحافظون والمتطرفون والغاضبون من استبداد الشاه إلى وسائل الإعلام القديمة

---

(1) Pool, Ithiel de Sola: Direct Broodcasting Satellites and the Entegity of National cultures. 1979.

وكانت الغلبة لهم ، لا لقدراتهم الإعلامية ، ولكن لأن إعلام الشاه لم يجد له صدى فى آذان الجماهير .. ولم يكن الخطأ خطأ الإعلام الإيرانى بفصائله العديدة ، ولكنه كان خطأ الإرغام والبيروقراطية المتفشية والثراء والفقر معًا وفشل التحديث فى تحقيق مراميه ، والتناقض بين فكر قديم ثابت وطيد وفكر غاشم مهوش تغذيه أيدولوجية غريبة مغرضة وصراع دولى طامع . حتى قيل إن التحديث الإيرانى لم يكن غير خميرة لمأساة قومية .

إلا أن هذه التناقضات التى يواجهها الإرسال العالمى للإعلام عن طريق الأقمار الصناعية التى قربت البعيد . توشك أن تتضاءل أمام الاكتساح الحضارى للبلدان النامية ، فإن صانت عاداتها ومأثوراتها الثقافية فإنها لاتستطيع أن تحمى سلوكياتها من التحدى الحضارى الذى يطبع العالم بطابع واحد ، وقد تجد ثقافة شعب متقدم فى ثقافة شعب تاريخى كالهند ومصر القديمة ، مايغذيها يقيم إنسانية كريمة عجز الغرب المتقدم عن تحقيقها ، والإعلام البعيد هو الذى يحملها فيقرب بين الثقافات المتباينة فيطرد ماهو سيىء فيها جميعًا ويبقى على الصالح ، ليتواءم من بعد الفكر العالمى على الانسجام والتماثل ، وتصدق نبوءة أو رجاء توينبى فى قيام حكومة عالمية أو نظام عالمى يقوم على التوافق .

ومع تقدم وسائل الإعلام فمازالت « الكلمة » هى الرسالة ، وما تتضمنه الكلمة من معان تنفذ إلى الوجدان ويسيغها العقل ومهما قيل : إن « الوسيلة هى الرسالة » ، فإن ذلك قد يصدق على الإنجاز الحضارى وأثره على القرب والبعد أو بمعنى آخر ، تقريب المسافات بين الناس بما يتيح لهم مزيدًا من التواصل والاتصال ، لذلك يتسع مفهوم « الاتصال الجماهيرى » ليشمل كل مايعين الناس على الاتصال والتواصل ، وكانت كل وسيلة تساعد على ذلك — كما يرى ماكلوهان هى من وسائل الاتصال الجماهيرى وامتداد الإنسان إلى آفاق أوسع

وأبعد ، وما من وسيلة جديدة إلا وأبدعت محيطًا جديدًا إن كان ينبثق من المحيط القديم ، فإنه بالأحرى من نتاج هذه الوسيلة الجديدة ، ولكنها جميعًا تعتمد على الكلمة والمعنى الذى تتوخاه وتحمله ، ثم كانت الكتابة وسيلة لتسجيل الكلمة وبقائها وامتدادها ، وجاءت الطباعة لتغزو بالكلمة المكتوبة إلى آفاق أوسع وأبعد ، وكانت الكلمة هى الحروف المتراقصة على صفحات الجريدة ، وصفحات الكتاب . ثم كانت الصورة الفوتغرافية تجسيدا للواقع الطبيعى وإن كان واقعًا صامتًا لا ينطق وليس لها مكان إلا فى كتاب أو صحيفة أو إعلان مطبوع ، وبقيت الطباعة ومازالت ولها سلطانها الوطيد فى دنيا الإعلام أو الاتصال الجماهيرى جريًا على المصطلح الأمريكى .

ولكن الطباعة لم تقض على المشافهة ولم تحطم الكلمة المسموعة ، فإذا كانت الطباعة قد زودت الأبجدية البصرية بتلك القدرة الهائلة التى أصبحت لها ولم تتنازل عنها ، فإن الأسلاك قد طوحت بالأبجدية الصوتية إلى آفاق أبعد ، ولعل السيمافور كان البداية لوسائل الاتصال الصوتى البعيد . فإذا كانت الكلمة أو اللغة -كما يقول نوربرت فينر- مؤسس علم السيبرناطيقا ، هى أداة الاتصال بين شخص وآخر ، فإن هذا الشخص يمكن أن يتحدث إلى آخر من خلال آلة إلى آلة أخرى . وهكذا . وكان الاتصال قديمًا مشافهة بين إنسان وآخر ، فكان على « فيدبديس » أن يعدو من ماراثون إلى أثينا ليبلغ القوم خبر انتصارهم على الفرس عام ٤٩٠ ق . م . ثم كان الحمام الزاجل أكثر قدرة من أقدام الإنسان ، حتى استطاع صمويل موريس عام ١٨٤٥ أن يستخدم سلكًا كهربيًا فى نقل برقيات شفرية بين واشنطون وبالتيمور ، حتى اكتشف « جراهام بل » بعد ذلك بثلاثين عامًا أن الأسلاك تستطيع أن تحمل حديث إنسان إلى إنسان آخر ، واستطاع « جوليلمو ماركونى » أن يحل الموجات الكهرومغناطيسية محل الأسلاك فى نقل الحديث عام ١٨٩٥ ، وتم

أول حديث عبر الأطلنطي عام ١٩٠١ ، ثم كان العقد الثانى من القرن العشرين ليصبح الاتصال اللاسلكي عبر الأطلنطي واقعًا مألوفا ، وكان على العالم أن ينتظر حتى عام ١٩٥٦ ، امتداد الكابلات البحرية عبر المحيطات والبحار ليخاطب الناس بعضهم بعضًا عن طريق التليفون . وكان الراديو قد غمر العالم بموجاته وحديثه المباشر إلى الأذن . ثم ظهر التليفزيون ليجمع بين الأبجدية البصرية والأبجدية الصوتية وكانت الكلمة فى كل تلك الوسائل مكتوبة أو منطوقة أداة الاتصال أو الإعلام بتعبير أدق .

فالكلمة هي أداة الإعلام أما الاتصال الجماهيرى فلايقف عند الكلمة وحدها ، فالعربة والسيارة والقطار والطائرة وسائل اتصال كبرى بين الناس والبلدان فى كافة أنحاء العالم ، وقد حلت الدواب محل أقدام الإنسان ، وعندما استأنس الإنسان الحصان سخّره لقطع مسافات أبعد ، وعدما حلّ الشراع فى السفن محل المجاديف ، ضاعف من سرعتها وامتدادها حتى ساقها البخار إلى مسافات أبعد ، وكان من آثاره قطارات السكك الحديدية ، واخترعت الطائرة ، وغذت التكنولوجيا الحديثة المواصلات البرية والبحرية والجوية بقدرات أقوى وأوسع . ولم تعد أية بقعة بعيدة فى الأرض بمنأى عن الأخرى ، وغذت بالتالى وسائل لاتصال جماهيرى أوسع صلة وأبعد مدى .

وقد نرى نوعًا من التباين بين الإعلام بمدلوله العلمي والاتصال الجماهيرى ، فالإعلام كمايراه العالم الألمانى « أوتو جروت » هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت ، وهو تعريف يراه الدكتور عبداللطيف حمزة أوضح تعريف للإعلام ، ويفصله بأنه « تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة ، التى تساعدهم على تكوين رأى عام صائب فى واقعة من الوقائع ، أو مشكلة من المشكلات . بحيث يعبر هذا الرأى تعبيرًا

موضوعيًّا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم »[1] .

ونضيف إلى ذلك أن الإعلام إذا كان تعبيرًا موضوعيًّا لعقلية الجماهير وروحها وأنه يزود الناس بالأخبار الصحيحة ، فإن التعريف يقصر عن الوفاء ببيان المضمون العام للإعلام ، فإن الإعلام إذا كان تعبيرا موضوعيا لعقلية الجماهير ، فإنه يكاد يخرج بذلك عن دائرة الدعاية والترفيه ، ويقصر وظيفته على التعليم والمعرفة ونقل الخبر ، وقد قلنا من قبل إن الإعلام بفصائله الأربعة : التعليم أو نقل المعرفة ، والدعوة أو التعريف بشيء جديد واستهواء الناس إليه ، والدعاية أو التأثير بأى وسيلة فى الناس وفى أهوائهم ، والترفيه أو إمتاع الناس وإرضاء النزعة الفنية لديهم ، ويشمل بذلك كل ماتعبر عنه الكلمة بأى وسيلة من الوسائل قديمة أو حديثة ، وكل ماينقل الكلمة أو يسجلها أو يحفظها وسيلة إعلامية ، ويختلف بذلك عن الاتصال الجماهيرى الذى يتجاوز المنطوق إلى الحركة ومايترتب على الحركة من نتائج .

وسواء وقفنا عند الإعلام بمدلوله المحدد ، أو الاتصال الجماهيرى بمدلوله الفسيح فإن كل مايساعد على اتصال الناس والمجتمعات والبلدان بعضها ببعض ، فهو من وسائل الأعلام أو الاتصال الجماهيرى ، وإن كان علينا أن تميز بين الاثنين فى المدلول العلمى .

ويرى « رسل نويمان » فى مقال له بمجلة « رسالة اليونسكو » أن ماكلوهان قد عكس الآية . ويتفق معنا فيما نذهب إليه من أن الأداة لاتحدد المضمون ، وإنما الذى يحدده هما الثقافة والفكر ، وأن الثقافة والفكر حين تصبح التكنولوجيا قادرة

---

(١) دكتور عبد اللطيف حمزة :

١ – الإعلام : له تاريخه ومذاهبه .

٢ – الإعلام والدعاية .

على بثها ، فإن هذه القدرة هى التى تضفى على الوسيلة أهميتها . ولا يمكن لاية وسيلة تكنولوجية حديثة ، أن تتحرر من الطابع الثقافى الذى يسيطر عليها ويبثها ، فإذا كانت وسيلة الإعلام القديمة سمعية أو بصرية لا تتجاوز نطاقها القومى ، فإن الوسيلة التكنولوجية الحديثة قد امتدت بالإرسال عبر الحدود القومية ، وإنها تستطيع أن تملى طابعها الثقافى والفكرى ، ويغدو التدفق الحر للبرامج على اختلافها خاضعًا لمن يملك ولمن هو أقوى . وليس من المستبعد مع التركة البغيضة للاستعمار فى البلدان النامية ، أن تنظر بعين الشك والحذر إلى التدفق الإعلامى من جانب البلدان المتقدمة ، وأن ترى نوعا من الاستعمار الجديد ، وإن بدا فى كثير من الأحيان حتما لا يمكن رده ، فالبرامج الترفيهية من مسلسلات درامية أو موسيقية أو عروض لمناسبات قومية تغرق الإرسال التلفزيونى فى كافة أنحاء العالم ، وبالذات العالم النامى الذى يعتمد إلى حدّ كبير على استيراد البرامج الأجنبية ، فإن نمت عن شىء من التناقض بين مضمونها الثقافى والفكرى وبين ماهو قائم ، فإن الغلبة ولاشك ستكون للموجة الغالبة التى تتكيف مع حضارة معاصرة ، ويغدو التفاعل الثقافى بين الجديد والقديم حتمية قائمة .

إلا أن هذا لايتم ولا يتحقق مالم يتوازن الإنتاج الإعلامى بين البلدان النامية والمتقدمة ، فالبلدان النامية مازالت فى حالة تبعية لإعلام البلدان المتقدمة ، إذ أن أكثر من ٨٠٪ من الأنباء التى تذيعها على العالم تصدر منها وعنها ، وليس للبلاد النامية منها أكثر من ١٠٪ إلى ٣٠٪ . وهذا التباين البالغ يخل بالتوازن ، وهو مايعوق عملية التفاعل بين ثقافة واردة وثقافة قائمة ، بل قد يؤدى إلى نوع من التحدى والرفض لكل ماهو غريب ، لاسيما وأن مايتلقاه الإعلام الغربى ويذيعه عن الدول النامية ، يبدو مشوشًا وأحيانا شائهًا مما يباعد بين اللقاء والتفاهم ، ويثير النعرات العرقية والقومية .

وأخطر مايواجهه العالم فى هذا الوقت ، هو التفاوت البالغ فى مستوى المعيشة بين الشعوب المتقدمة والشعوب النامية والخلل الاقتصادى بين الجانبين ، بل إن هذا الخلل الاقتصادى يكاد يجرف فى طريقه التوافق بين دول الغرب الصناعى ، فقد أخذت السوق الأوربية المشتركة تنحسب من الضغط الأمريكى حين يتعرض للتيارات السياسية بين الجانبين .

ولا يثمر التدفق الحر للإعلام ، مالم تتوازن القدرات الإعلامية بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ومالم يتقارب الدخل القومى ومستوى المعيشة فى الدول النامية من مستواه فى الدول المتقدمة ، وإلا كان غذاء للموجدة والحقد والصراع الاجتماعى والسياسى ، وعائقًا أمام التقارب الثقافى والاجتماعى والسلام العام .

فهرس

صفحة

للمؤلف

		السنة
١ - السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط		١٩٥٢
٢ - مع الأحداث في الشرق الأوسط ١٩٤٦ - ١٩٥٦		١٩٥٧
٣ - ثورة في التعليم		١٩٥٨
٤ - أرض الميعاد		١٩٦١
٥ - وحدة التاريخ العربي		١٩٦٢
٦ - الشرق العربي بين حربين		١٩٦٣
٧ - لطفي السيد والشخصية المصرية		١٩٦٣
٨ - أحمد لطفي السيد : أستاذ الجيل	أعلام العرب	١٩٦٥
٩ - رفاعة الطهطاوي : رائد فكر وإمام نهضة	أعلام العرب	١٩٦٦
١٠- علي مبارك : ابو التعليم	أعلام العرب	١٩٦٧
١١- هيكل وحياة محمد		١٩٧٠
١٢- الإسلام والسياسة		١٩٦٩
١٣- التاريخ والسير	المكتبة الثقافية	١٩٦٤
١٤- الفكر السياسي الحديث	المكتبة الثقافية	١٩٦٧
١٥- بريطانيا والجنوب العربي	المكتبة الثقافية	١٩٦٧
١٦- وعد بلفور	اخترنا للطالب	١٩٦١
١٧- الأمة العربية	اخترنا للطالب	١٩٦١
١٨- قصة الاستعمار	اخترنا للطالب	١٩٦٢

	السنة
١٩- بترول العرب	اخترنا للطالب ١٩٦٢
٢٠- التناقض الطبقى فى ثورة ١٩١٩	اخترنا للطالب ١٩٦٤
٢١- الإسلام وروح العصر	كتابك ١٩٧٩
٢٢- المرأة والإبارتهيد فى جنوب أفريقيا	الأمم المتحدة ١٩٧٩

كتب مترجمة عن الإنجليزية :

١ - ساعة الحسم : چون كينيث جلبريث	١٩٥٩
٢ - معلمتى : آن سوليفان ماسى : هيلين كيلر	١٩٦٠

تحت الطبع :

١ - الدولة والحكم فى الإسلام

٢ - الدولة الإسلامية : البداية والنهاية

٣ - الدكتور هيكل وتاريخ جيل

٤ - حياة جيل

٥ - قادة الفكر الدولى - مترجم

٦ - التعليم وتحديات العصر

٧ - ذكريات معلم

٨ - الإعلام الإسلامى

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ١٥٢٤	
الترقيم الدولى	977-02-0711-X	ISBN

١ / ٨٣ / ٢٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)


اتف الحق الذى
غفلة عما يلم بالبعض
أفغانستان على مواقع
يهدون تداخل الانكليز
ى المصرية ذهابًا وإيابا تق
نعين لحريرها من حلاقيمهم
عن شمائلهم
member
rticular
xample
of the
l state
which
had
oup
d of
ion
ise
النفوس ، فلقد تكشفت

